غالي شكري

ماذا يبقى من طه حسين ؟

دار المتوسط للنشر والتوزيع
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب ٥٤٦٠ - تلفون ٢٥٦١١٠ - بيروت

الطبعة الاولى
ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤

الصديق العزيز

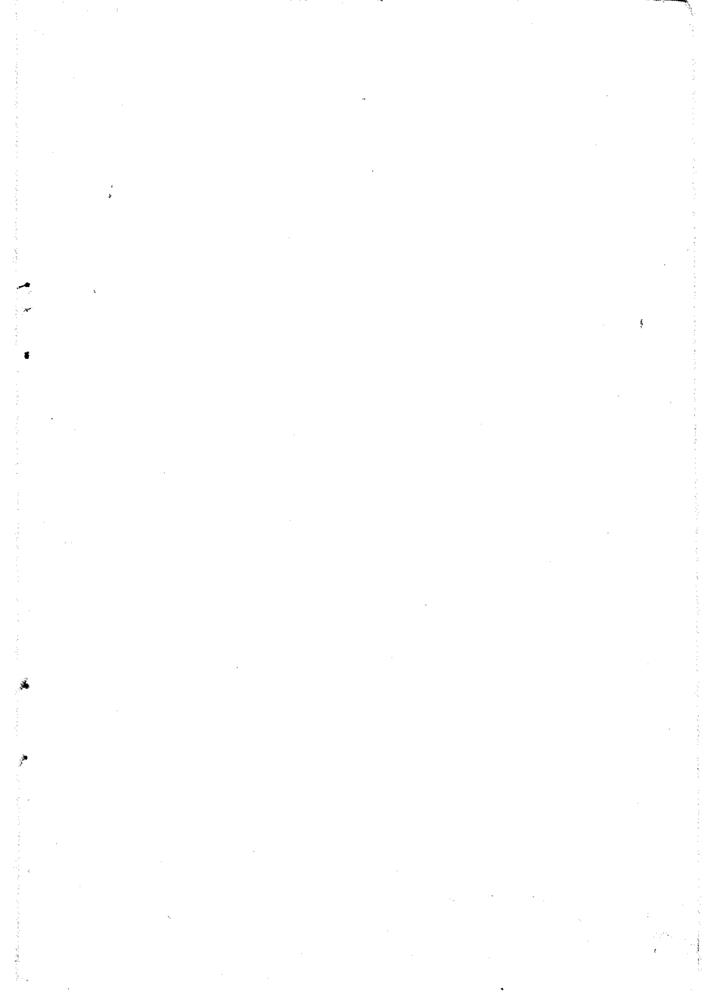
[illegible]

مع تحياتي وتقديري

[illegible]

٢٠ / ١٠ / ٧٤

ماذا يبقى من طه حسين ؟



كلمات في المقدمة

في الخامس من شهر نوفمبر ــ تشرين الثاني ١٩٧٣ كتبت في مجلة «البلاغ» اللبنانية وبزاوية «وجهة نظر» ما يلي :

ذكريات الحوار الضائع

حين قرات صباح الاحد ٢٨ــ١٠ــ١٩٧٣ نبأ فوز طه حسين بجائزة الامم المتحدة «لابرز المنجزات في حقل حقـــوق الانسان» شرعت في كتابة «وجهة نظر» حول هذا الموضوع . ولم اكن قد انتهيت من تسجيل النقاط التي أود أثارتها بهذه المناسبة حتـى فاجأني نبأ نعيه من راديو القاهرة . وسقط بين أصابعي القلم .. فمنذ شهر تقريبا ثارت بيني وبين رئيس التحرير مشكلة حقيقية محورها طه حسين . كان الزمن قد أتاح لي في بداية هذا العام ان اتردد طيلة ثلاثة اسابيع كاملة على منزل الدكتور طه حسين ، أدير

معه حوارا طمحت فيه ان يكون «وثيقة شاملة» عن حياة الرجل وفكره . وتلاحقت الاحداث ولم ينشر الحوار . وحين جئت الى بيروت لم يكن بحوزتي ، ولكني رويت قصة الحوار للصديق غسان شرارة فقال لي : بل يجب أن تطلبه من القاهـــرة لنشره ملفا . وبالفعل ارسلت في طلب المسودات ، وجاءتني اخيرا . ووضعت الحوار بحرص بالغ في أحد أدراج مكتبي ، ثم توالت الاحداث مرة اخرى وجذبتني مع رئيس التحرير الى قضايا واهتمامات بعيدة بعض الشيء عن موضوع طه حسين ، الى ان كان الاسبوع السابق على الحرب مباشرة، حين فاجأني الزميل غسان يطلب مني ان أهيء حوار طه حسين للنشر في العدد الماثل للطبع. ورحت باطمئنان أفتح الدرج الذي تصورت انني اودعت فيه المسودات ، فلم أجدها . وأخذت أفتش بهدوء اول الامر، ثم ارتفعت درجة الحرارة تدريجيا وأنا أكاد أجن . لا في المنزل ولا في المكتب . ان حياة الغربة تضطر المرء احيانا للتنقل من مكان الى مكان . والحقائب المليئة بالاوراق والكتب ، تفتحها وتغلقها وتحملها عديد من الايدي . ويبدو ان المسودات قد ضاعت اثناء احدى هذه التنقلات . ورحت الى رئيس التحرير انقل اليه النبأ مع أسفي الشديد ، فقد كانت ترتيبـــات «العدد» من الناحية الصحفية تعتمد على الحوار الضائع . اما انا فقد كان حزني اكبر وأكثر غورا في النفس ، لقد كانت الاوراق التائهة قطعة حية من تاريخنا ، ولحظات رائعة من عمري .

ولست اعتقد ان هناك مثقفا واحدا من مثقفي العقود الاربعة الماضية من هذا القرن ، في مصر والوطن العربي عامة ، لم يمتد اليه تأثير طه حسين . لقد كانت وستظل هذه ميزته التي ينفرد بها عن بقية ابناء جيله العظيم .. فلربما تجد من يقول انه تأثـــر بالعقاد او سلامة موسى او المازني ، كل على حدة ، ولكنك ستجد ان الجميع قد تأثر بالاضافة الى كاتبه المفضل ، بطه حسين .

لماذا ؟ لان طه حسين هو الوحيد من ابناء جيله الرائد الذي استطاع ان يجمع في حياته العلمية بين الازهـــر والسوربون ،

فاستطاع ان يحل معضلة المعضلات في بداية عصر نهضتنا ، واعني بها قضية الاصالة والمعاصرة . لقد بقيت قدما طه حسين غائرتين في أعماق الارض التي ولد من صلبها ، ولكن قامته اطلت على «العالم» كله من اللاتين واليونان الى الفكر والادب الاوروبيين فيما بين الحربين وما بعد الحرب العالمية الثانية .

وأذكر انني ركزت حواري كله معه ــ وقد دام حوالي اربعين ساعة ــ حول هاتين النقطتين : قضية التراث والمعاصرة ، وقضية الديمقراطية . وفي القضية الاولى كان فضل طه حسين التاريخي هو انه بكتابه «في الشعر الجاهلي» قد فتح آفاقا للتراث العربي القديم لا تحد . ان مشكلة «الانتحال» لم تكن اكثر من شاهد ومثل ، ولكن العبرة الحقيقية كانت بالمنهج الذي جرؤ على تطبيقه ايا كانت النتائج شائكة والعواقب وخيمة . ولقد يكون صحيحا ان طه حسين قد تراجع بسحب الكتاب من الاسواق وحذف الفصل الهام من الطبعة الثانية . غير انه يبقى صحيحا بنفس المقدار ان «المنهج» ظل ساري المفعول في مختلف بحوثه النقدية التالية ، وخاصة في كتابه «حديث الاربعاء» . كذلك كان فضل طه حسين التاريخي في الدراسات الاسلامية التي بعث فيها تاريخنا ومعارك نضالنا وأبطالنا بعثا جديدا لا يعتمد على الخرافة ولا على التزوير، وبخاصة في كتابيه «على هامش السيرة» و«الفتنة الكبرى» اللذين تلمس فيهما تخوم القوانين العلمية لحركة المجتمع في التاريخ الاسلامي . كذلك يعود لطه حسين فضله التاريخي في بعث الجانب الادبي والفني للرومان واليونان . ان قسم الكلاسيكيات بالجامعات المصرية مدين لهذا الرجل بتركيز الضوء على أصول الثقافة الانسانية ، وقد كانت ترجماته للمسرح الاغريقي و«قادة الفكر» في اثينا ، من اهم العناصر التي شاركت في «البحث عن الجذور» بالجامعة . وقد كان ــ وهو استاذ الادب العربي وعميد كلية الآداب ــ الحافز الاكبر في تخريج العلماء المصريين والمتخصصين في اليونانيات .

وكان ذلك كله ثمرة مفهومه عن التراث ، وهو المفهوم الذي يضم الاصالة والمعاصرة في اهاب واحد . ان رعايته الفائقة للدراسات العربية والاسلامية لم تكن تقل عن عنايته الشخصية بتراث الاقدمين لدى غيرنا من الامم . وكانت مجلته «الكاتب المصري» في الاربعينات منارة الفكر الاوروبي الحديث ، فيها تربينا وتعلمنا وقرانا لاول مرة ادب كافكا وكامي وسارتر .

اما قضية الديمقراطية فهي راية طه حسين التي لم تسقط من بين يديه طيلة حياته . ولعل كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» هو العلامة الباقية من ذلك الجيل بأكمله ، انه كتاب الديموقراطية المصرية ، وان كان التعليم هو محور البحث . وحين انضم طه حسين الى وزارة الوفد الاخيرة ـ قبيل حركة ٢٣ يوليو ـ وزيرا للمعارف ، حقق شعاره الذي يطالب بأن يكون العلم «كالماء والهواء» حقق مجانية التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية . وانجز عبد الناصر بقية الحلم بأن حقق مجانية التعليم الجامعي . وستظل مجموعة «المعذبون في الارض» ورواية «شجرة البؤس» من اقوى الدلائل على أن طه حسين لم يكن يفصل بين الديمقراطية والعدل الاجتماعي وربما كانت بصيرته اقرب الى تصويرهما وجهين لعملة واحدة .

وفي ذلك كله ، دفع طه حسين الثمن . ولكنه يستطيع ان يقول «انني انتصرت» فأحد الملامح المشرقة على وجه امتنا يدعى طه حسين .

***

ومنذ اسابيع عثرت على اوراقه الضائعة التي تشكل في جملتها وثيقة تاريخية نادرة ، هي آخر ما ادلى به عميد الادب العربي من آراء وأفكار في حياته . والوثيقة فوق انها تغطي

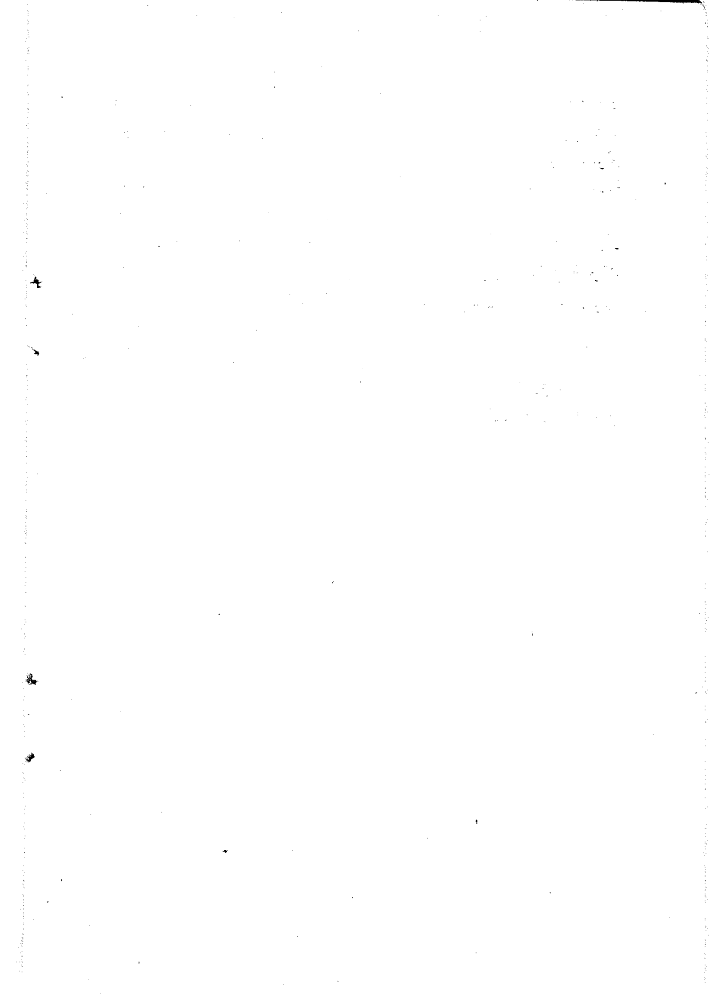
مساحة زمنية كبيرة في تاريخنا الادبي من خلال احد اعمدتـــه الراسخة ، فانها حوار حي بين الجيل الرائد لعصر نهضتنا وجيلنا.

وقد رأيت ان أضم في هذا الكتاب الصغير الى جانب الحوار «ملفا» كنت قد نشرته بعد وفاة الرائد الكبير و«خاتمة» من ثلاثة أسئلة موجهة الى مؤرخي ونقاد طه حسين .

وبعد ، فهذه الصفحات القليلة لا تطمح الا في فتح حـــوار جديد حول مرحلة من أهم مراحل الثقافة العربية الحديثة وقد تجسدت في قلة من الافذاذ ، هي مرحلة انبثاق الشرارة الاولى لفجر نهضتنا المعاصرة .

غالي شكري

بيروت ، مايو ـ ايار ١٩٧٤



ماذا يبقى من طه حسين ؟

بالرغم من ان رسالته لنيل الدكتوراه من الجامعة المصرية كانت حول «ابـــي العلاء» ، وبالرغم من انه أعاد كتابتها بعدئذ على نحو جديد يشي بأواصر القربـــى الروحية بين الشاعر والباحث ، فان طه حسين لم يقتحم الساحة الادبية العربية الا عـــام ١٩٢٦ حين أصدر مجموعـــة المحاضرات التي كان يلقيها على تلامذته في الجامعة تحت عنوان «في الشعر الجاهلي» بين دفتي كتاب . كانت هذه ثورته الاولى التي خرجت من الاطار الاكاديمي المحـــض الى الشارع والصحافة والبرلمـــان وأبهاء المحاكم .

من المفيد القول بأن هذه الثورة لم تكن اكثر من «علامة» ضمن علامات اخرى بارزة على جبين تلك المرحلة التي تواضعنا على تسميتها بفجر النهضة . كان العقاد في كتابه «الديوان» قد اتخذ من شوقي ــ عميد المدرسة الكلاسيكية ــ هدفا لثورته الاولى عام ١٩٢١ ، وكان محمد حسين هيكل في روايته «زينب» بداية الثورة الفنية على أسلوب المقامة التقليدي عام ١٩١٤ ، وكان عبد الرحمن شكري والمازني بداية الثورة الشعرية بعد ان حرث لهما خليل مطران الارض حرثا جيدا ، وكان سلامة موسى في كتابه عن «الاشتراكية» عام ١٩١٢ مزيجا بين الفابية والراديكالية ثائرا على البنية الراسمالية للمجتمع المصري ، وكان الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الاسلام وأصول الحكم» ثائرا ــ في اطار الدين ــ على فكرة الوراثة في دولة الخلافة كنموذج ، والدولة الملكية ايا كانت في التطبيق .

وكان هؤلاء جميعا هم ابناء الطبقة المتوسطة البازغة في حركة التحرر الاجتماعي لمصر ابان العقدين الاول والثاني من هذا القرن. ومن اللافت للنظر ان غالبية هؤلاء «الاعلام» قد اضطهدوا واضطهدت كتاباتهم بصورة او بأخرى ، فقد صودرت كتب طه حسين وسلامة موسى وعلي عبد الرازق ، وقدم الاول والثالث للمحاكمة . اما هيكل فقد احتاط للامر بأن نشر «زينب» في طبعتها الاولى بتوقيع مستعار هو «مصري فلاح» . وأما العقاد فعانى الاهوال من شاعر الامير الذي شن عليه حملة شعواء في دوائر السلطة والصحافة .

هذه الموجة العنيفة التي شهدت مصر مدها وجزرها طيلة الربع الاول من القرن العشرين ، كانت تجسيدا فكريا لمتغيرات الارض الاجتماعية ، وتصادم علاقات الانتاج الجديدة بالقيم

السائدة . وقد اتسم الموقف العام من طه حسين وعلي عبد الرازق ــ على وجه الخصوص ــ بالعنف ، لانهما من ابناء الازهر . اي انهما ينتميان على نحو ما الى ما يتصوره البعض «قيما سائدة» . كان خطر علي عبد الرازق انه يتوجه مباشرة الى «رأس الحكم في البلاد والاساس التشريعي للنظام» ، فالكتاب في خاتمة المطاف ضد الملكية . لذلك فصلوه من هيئة كبار العلماء وصادروا «الاسلام واصول الحكم» نهائيا .

وطه حسين كان يتوجه الى ما هو اخطر من النظام السياسي، كان يقتحم النظام الفكري للمجتمع والسلطة على السواء ، لذلك فهو بالرغم من انه لم يتعرض لشخص محدد ــ كالذات الملكية مثلا ــ او حتى مبدأ سياسيا مباشرا ، الا انه قد طورد ولوحق بصورة غير مسبوقة في ذلك الوقت . ولا يكفي القول بأن طه حسين قد طبق منهج الشك عند ديكارت على الشعر الجاهلي ، ولا يكفي ايضا انه رأى في بعض هذا الشعر «انتحالا» دفعه لان يرجح بانشاء هذا الشعر في صدر الاسلام . وانما ينبغي ، بالاضافة الى ذلك كله ، القول بأن طه حسين كحلقة في سلسلة الفكر البرجوازي الجديد قد دعم الرؤية الليبرالية الوافدة على الثقافة بشاهد خطير يمس قدس الاقداس عند الفكر السلفي وهو اللغة . لقد حاول طه حسين ــ مثلا ــ ليدلل على صحة الفرض الذي شرع في اثباته ، ان يستشهد بالقرآن لغة واسلوبا على مدى القرابة التي تصل بين هذا «البيان» الاسلامي ، والنسيج البلاغي للشعر الذي استقر في التاريخ والوجدان المتوارث بأنه يمت الى العصر الجاهلي .. بينما صوره واوزانه واخيلته ، بل واشباح معتقداته ، تمت الى صدر الاسلام .

وكانت المشكلة من الناحية الفكرية اهم بكثير مما اراد البعض

ان يسبغه عليها من الناحية الدينية .. ان مجموعة المقدمات والنتائج التي توصل اليها طه حسين لا تعني مطلقا انه «ملحد» ، بل هي بعيدة كل البعد عن ان تجعل منه مفكرا «ماديا» بالمعنى الصحيح لهذا التعبير ، سواء في فلسفات القرن الثامن عشر وما سمي بعصر التنوير ، او في فلسفات القرن التاسع عشر والقرن العشرين من الماركسية الى البراجماتية والوضعية والتجريبية . ان طه حسين في بحثه الرائد يظل مفكرا مثاليا بالمعنى الفلسفي كديكارت نفسه . وهو لم يتخذ من ديكارت ولا من اوجست كومت سوى بعض العناصر المنهجية غير المترابطة عضويا في نظام فلسفي متسق . أي انه بلغة هذه الايام قد استلهم «الشعار» اكثر من استلهامه لاسس البناء المنهجي وطوابقه الشاهقة . اخذ عن هذين الفيلسوفين الكبيرين ، شكهما في المسلمات واعتمادهما على العقل . وقد كان «العلم» وقوانينه المكتشفة حديثا آنذاك ، بمثابة الدعامة النظرية التي أغنت أفكار ديكارت وأوجست كومت ، كليهما — رغم تباين فلسفتيهما — بعديد من عناصر الصياغة المنهجية لرؤيتهما الوجود والطبيعة والمجتمع في العصر البرجوازي الاوروبي .

ولم يكن هذا حال طه حسين ، ولا حال زملائه من جيل النهضة في تاريخنا الحديث . كانت البرجوازية المصرية الناشئة من الضعف والوهن — فقد بدأت حياتها اصلا بالقطاع التجاري — ومن التخلف ايضا ، بسبب انضمام شرائح اليها من القطاع الزراعي ، بحيث انها لم تكن لتستطيع في مواجهة الفكر الاقطاعي الراسخ الا أن تأخذ من البرجوازيات الاوروبية اسلحتها القديمة التي واجهت بها المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية والمؤسسة الاجتماعية .

ولكن هذه الاسلحة التي كانت ثمرة ابداع اجتماعي مغاير

لظروفنا ـ التي لم تصاحبها مثلا كشوف علمية وتطبيقات صناعية لهذه الكشوف وانتقال بالمهن الحرفية الى مستوى ارقى للعلاقات الاجتماعية ـ هذه الاسلحة ما كان يمكن «استيرادها» كما هي بلا زيادة او نقصان . وانما كان ابداع جيل الرواد انهم نقلوا وتأثروا بما يلبي الاحتياجات الموضوعية للواقع المصري في اتجاه التخلي عن المجتمع شبه الاقطاعي المستعمر ، الى المجتمع الوطني الديمقراطي المستقل . هكذا كانت الآداب الرومانسية الاوروبية والنظرات الاشتراكية التدريجية البرلمانية وافكار وقيم الاصلاح الديني ، هي الواجهة الليبرالية التي رفعتها الانتلجنسيا المصرية في ذلك الزمن .

ومن هذه الزاوية ، كان «المنهج» الذي قدمه طه حسين في تضاعيف كتابه «في الشعر الجاهلي» هو ناقوس الخطر الذي «بلور» معالم الثورة الاولى في فكرنا الحديث .. فاذا كان العقاد هز عرش الكلاسيكية الشعرية بمعول هازلت ، ناقد الرومانسية الانجليزية العظيم ، واذا كان سلامة موسى قد هز عرش الثيوقراطية العربية بمعاول برنارد شو وولز ونيتشه وماركس ، فان ثورة العقاد ظلت محصورة في دائرة الشعر امدا طويلا ، وثورة سلامة موسى ظلت لتطرفها ابعد ما تكون عن دائرة الاهتمام الواسع ، اما طه حسين ، فرغم الطابع الاكاديمي لكتاب «في الشعر الجاهلي» فانه دخل عرين الاسد كما يقال ، دخله راكبا حصان طروادة كما يقال ايضا .

ذلك ان القضية خرجت على الفور من اطار الشعر ، فضلا عن الشعر الجاهلي ، الى اقدس المقدسات عند العرب . واصبح «المنهج» بما يشتمل عليه من ادوات البحث العلمي وفروضه ووسائل البرهنة عليها ، هو الشغل الشاغل عند الذين بادروا

بالهجوم المضاد «تحت راية القرآن» ـ وهو عنوان احـد الكتب السبعة التي ردت عليه ـ وهو ايضا اوسع الابواب لاستمالـة الجماهير ضد المفكر الحر . ذلك ان تشكك طه حسين في وجود ابراهيم واسماعيل وانهما شاركا في بناء الكعبة ، وقوله ان العرب فهموا القرآن لانه حدثهم عن واقعهم «ولولا ذلك لما حفل به احد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه وضحوا في سبيل تأييده ومعارضته بالاموال والحياة» وغير هذه العبارات التي اوردهـا في كتابه ، ليست دليلا على كفره وإلحاده وزندقته وهرطقته الى آخر قائمة الاتهام التي رفعها المشايخ و«العلماء» والاساتذة محمد فريـد وجدي ومصطفى صادق الرافعي ومحمد الخضري ومحمد الخضر حسين ومحمد احمد عرفة ومحمد احمد الغمراوي ومحمد لطفي جمعة ، وغيرهم وغيرهم ممن شنوا حملة الجهل و«هدر الدماء» .

ان هذه الملاحظات «الدينية» العابرة في كتاب طه حسين ، لم تكن اكثر من «تفاصيل النتائج الثانوية» التي انتهى اليها . وكان تركيز الضوء عليها من جانب الشيوخ والسلفيين استنفارا رجعيا متطرفا لمشاعر المواطنين العاديين الذين كتب احدهم «شكوى» الى الازهر ، قام المسؤولون بتحويلها الى النيابة التي باشرت بالتحقيق في الدعوى ، وهم الذين كانوا وراء ضجة البرلمان الذي قـدم استجوابا لوزير المعارف يتهم فيه طه حسين «بإفساد الشباب» وكأنه سقراط الجديد .

ومن يطلع على مضبطة مجلس النـواب المصري عام ١٩٢٦ ويتابع الصحافة المصرية في تلك الفترة ويقرأ محضر التحقيق الذي نشر مؤخرا ، لا يعجب فحسب بشجاعة طه حسين وقوة الحجة لديه ، وانما يضع كلتا يديه على حقيقة تاريخية بالغة الاهمية ، وهي ان «الليبرالية المصرية» قد انتصرت رغم مصادرة الكتـاب

ومؤلفه . الا ان طه حسين نفسه ـ كما قال لي في الحوار الضائع ـ كان حزينا ، شعر بالالم كما لم يشعر به من قبل ، لان الضجة التي اثيرت حول الكتاب تذرعت بأسباب هامشية غطت على جوهره الحقيقي ، على «المنهج» الذي يهدف الى ترسيخه . وقد حزن طه حسين ايضا لان البعض ظنه ـ بحسن نية ـ قد تراجع، والبعض الآخر استغل نغمة «التراجع» عن سوء نية لينسف موقف طه حسين من اساسه . والحقيقة هي ان موقفه اقرب الى المناورة حتى ولو بدا في ظاهرها التراجع . لقد حذف طه حسين من الكتاب فصلا واحدا وأضاف اليه اربعة فصول تدعم المنهج وتؤصله وان خلت الطبعة الثانية ـ ١٩٢٧ ـ من شواهد القرآن والانبياء . وبقي الكتاب في جوهره يؤدي رسالته الفكرية جيلا بعد جيل ، وبقي منهجه من الدعامات النظرية للنقد الفكري والادبي التي تقول :

ان ما وصلنا عن القدماء ليس منزها عن اعادة النظر والبحث والتمحيص ، ويجب ان نلتقي به بعيدا عن اليقين والايمان وقريبا من الانكار والشك . ذلك ان المحيط البيئي والتاريخي الذي أثمر عمل القدماء لم يكن محيطا هلاميا غير عابىء بالضغوط الاقتصادية والمناورات السياسية والنزوات العسكرية والاهواء الشخصية . وانما هذه كلها تتداخل فيما بينها وتشارك بهذا النصيب او ذاك في«خلق» عمل القدماء، الذي هو في النهاية ليس خلقا من العدم. ان هذه النقطة تعني في التطبيق عند طه حسين ، انه لا بد من النظر الى العمل الادبي القادم من السلف في اطاره الاجتماعي ـ التاريخي ، من ناحية ، وفي اطاره الموضعي من ناحية اخرى . اي انه قدم في واقع الامر منهجا مركبا من عنصرين لا يزال بعض الباحثين الى اليوم يعتقدون بتناقضهما ، وهما : النقد التاريخي والنقد الجمالي ، فرؤية العمل الفني في السياق الاجتماعي ،

يجعل منه ثمرة للبيئة والعصر . وهو ـ اي طه حسين ـ متأثر في ذلك بلا ادنى ريب ، بالفكر الادبي الفرنسي حول هذا الموضوع، خاصة عند تين وسانت بيف . كذلك رؤية العمل الفني من داخله ـ كما هو ـ من حيث تركيبه اللغوي وصوره وأخيلته وموسيقاه. وفي ظني ان طه حسين متأثر في ذلك بالنقد العربي القديم ، لا بما يسمى في امريكا وانجلترا بالنقد الجديد . لقد تمكن طه حسين باقتدار من ان يمزج هذين العنصرين المنهجيين المتنافرين . ولعل هذا ما يمنح منهجه معنى الاصالة لا بالعودة الى القديم ، ولكن بتلبية الاحتياجات الموضوعية للواقع في اتجاه التقدم . ان هذا المزج في ذاته قد تم على ضوء استكشاف عميق لتاريخنا الادبي جنبا الى جنب مع ادراك عميق لحاضرنا الذي ينشد النهضة . وحين اختار طه حسين من الغرب هذا دون ذاك من مناهج الفكر والنقد ، وحين اختار بعض ما في تراثنا من نظرات نقدية نافذة، كان في واقع الامر «يبدع» منهجا جديدا من عناصر عديدة ، لا يهمه ان بعضها قد نبت في ارض غيرنا وان بعضها يمت الينا بصلة قرابة بعيدة ، وانما كان يهمه واقعنا واحتياجاته للتقدم .

واذا كان الكثيرون ـ هنا وهناك ـ يرون ان جهد طه حسين في هذا الصدد ، هو جهد الاختيار والتجميع والنقل ، فهم مخطئون .. لان استبصار واقعنا الاجتماعي والثقافي كان المهمة الاولى التي انجزها ، وهكذا نجح في تشخيص الداء والدواء . اما حصوله على الدواء ، فلم يتم بوسائل النقل الحرفي من اوروبا او من التراث العربي ، وانما بوسائل البحث عن هذه الجزئية او التفصيلة التي يمكن بلقائها مع جزئية اخرى وتفصيلة مغايرة ان تصوغ «تركيبا» جديدا يتجاوز العناصر الاولية شكلا ومضمونا ، وبحيث يستطيع هذا التركيب الجديد ان يلتقي مع الواقع الخام لقاء التفاعل ـ بتبادل التأثير والتأثر ـ الذي يؤدي الى تغيير هذا

الواقع ودفعه الى الامام (والمقصود هنا الواقع الاجتماعي والواقع الادبي معا) . ان عملية التفاعل هذه تضيف الى «التركيب الجديد» عناصر جديدة لم تكن بين المواد الاولية التي شاركت في صنعه عند البدء .

وهكذا ، فان طه حسين حين اخذ فكرة «البيئة والعصر» من النقد الفرنسي ، لم يأخذ سوى المعنى العام الذي يرى في الحروب والصراعات السياسية الخفية والظاهرة واساليب الحياة المادية وظروفها المناخية اطارا اجتماعيا وتاريخيا شارك في صنع الاديب والادب . اما التفاصيل اليومية الصغيرة ودقائق فعل الطبيعة وردود الافعال البشرية التي احتفل بها النقد الفرنسي ، فلم يكن يهم طه حسين اللجوء اليها . وهكذا ايضا ، حين اخذ عن النقد العربي القديم بعض نظراته الجمالية ، فهو لم يتحول الى النقد البلاغي المحض ، وانما الى ما يسميه الاوروبيون بالنقد الموضعي تارة والوصفي التحليلي تارة اخرى . وهو ذلك النقد الذي يعتمد على الذوق والبصيرة في رؤية العمل الفني من داخله، حيث المعجم اللغوي للشاعر وصوره البيانية وأدواته في تركيب الخيال الشعري . وعظمة طه حسين الحقيقية ، هي انه في ذلك الوقت الباكر ، امد جسورا غير مفتعلة بين هذين الاتجاهين في النقد ، ولعل هذا الانجاز الرائد لا زال «طموحا» لدى الكثيرين في عصرنا، اي في مرحلة تاريخية جديدة تجاوزت الكثير من معوقات وميسرات عصر طه حسين ، لمزج ما يسمى بالنقد الفكري او الايديولوجي بما يسمى النقد الفني الخالص أو النقد الجمالي المحض .

وسوف يبقى في تاريخنا ان طه حسين هو الذي ارتاد هذا الطريق الى «نظرية النقد» الخاصة بنا ، وسيظل ابداعه منارة كاشفة لكل من يحاول استكمال الشوط . وفي الحالين معا ، فان

قيمة عمل طه حسين ليست قيمة تاريخية فحسب ، وانما هي قيمة دائمة دوام البذرة في صلب النبات المزدهر ، مهما تعمقت جذوره باطن الارض ، ومهما ناطحت فروعه اعالي السحاب . ان طه حسين لم يكتف بوضع الاسس النظرية كما هو الحال اصلا في كتابه «في الشعر الجاهلي» ، وانما هو قد داوم تطبيقها على الشعر العربي في مختلف عصوره ، تشهد بذلك دراساته التالية ، وخاصة «حديث الاربعاء» و«حديث الشعر والنثر» .

ولم يكن اسهام طه حسين مشاركة في البحث عن نظرية للنقد الادبي فقط ، وانما كان ايضا وبنفس المقدار اسهاما ايجابيا فعالا في البحث عن نظرية التراث . ومنذ وقت مبكر تنبه طه حسين، ضمن جيل الرواد كما أسلفت ، الى اهمية الثقافة الاوروبية . ولكن طه حسين ، ربما من بين ابناء جيله جميعا ، قد تفرد بنظرة خاصة الى الثقافة . كان ينظر ـ مع هذا الجيل ـ الى مصر فيراها أقرب الى اوروبا منها الى آسيا ، لهذا لم يشذ عن الرؤيا الحضارية لرواد عصر النهضة في مصر ، والتي يمكن انجازها بفكرتين رئيسيتين هما: ان مصر بتاريخها الحضاري العريق تشكل وحدة قومية مستقلة عن العرب والمسلمين وان لم تكن بعيدة عنهما ، فالدين وشيجة روحية عميقة ولكن ليس رابطة قومية . والفكرة الثانية هي انه منذ فتوحات نابليون ينبغي أن نتجه الى اوروبا ، التي يشكل البحر الابيض المتوسط همزة وصل بينها وبين مصر وليس حاجزا مائيا . هاتان الفكرتان نطالع ملامحهما عند العقاد ايضا في كتابه عن «سعد زغلول» ، وعند الدكتور هيكل في كتابه «ثورة الادب» ، وعند سلامة موسى في كتابه «اليوم والغد» ، وعند طه حسين في كتابه الهام «مستقبل الثقافة في مصر» . وقد كانت هذه الرؤيا بمثابة العمود الفقري للوطنية المصرية في نضالها المزدوج ضد السلطنة العثمانية والاحتلال

البريطاني . ولم تظهر قط ، كنقيض للقومية العربية . والعروبة في ذلك الزمان اختلطت بالدين اختلاطا شديـــــدا ، وقد كانت الليبرالية المصرية بطبيعتها ضد «الجامعة الاسلامية» . وكان طه حسين ـ كسلامة موسى وهيكل ـ من الذين تأثروا بشعار أحمد لطفي السيد «مصر للمصريين» حتى ولو كان هذا الشعار يعني لدى صاحبه ـ في التطبيق السياسي ـ معنى مغايرا لدى هؤلاء المثقفين الجدد . مصر للمصريين وليست للاتراك او الانجليز ، هذا ما فهمه الشباب حينذاك . واكبوا في وقت واحد على تاريخ مصر القديم بصورة رومانسية في الاغلب ، كنوع من الرد التاريخي على التحدي الراهن . ثم أكبوا على اوروبا في نفس الوقت حتى لا يتخلفوا عن روح العصر اذا شاءوا حقا لمصر الجديدة ان تسترد أمجادها القديمة .

في ذلك كله لم يختلف طه حسين عن أقرانه . ولكنه انفرد من بينهم جميعا ازاء الموقف من الثقافة الاوروبية وحضارة الغرب عامة ، في انه أولى اهتمامه البالغ للجذور . ان عصر «النهضة» في اوروبا هو عصر البعث للكلاسيكيات اليونانية واللاتينية. وإذن، فاتجاهنا نحو اوروبا لا ينبغي محاصرته في حدود انجازاتهـــا الحديثة ، بل لا بد من البحث عن الينابيع الاولى . وذلك حتـى تتكامل في المخيلة الصورة الشاملة للحضارة الاوروبية، بمقدماتها، بدلا من الاقتصار على نتائجها المعاصرة .. فقـد ينير لنا التاريخ البعيد ما يغمض على الادراك من دهاليز التاريخ ، وقـد تفسر البذور طبيعة الثمار . الوعي الحضاري المتكامل هو لب اللباب في تفكير طه حسين حول التراث . لذلك أسس وشجع وترجـم اليونانيات ، مستهديا في ذلك ايضا بأحمد لطفي السيد الذي نقل ارسطو . اما طه حسين فقد ركز على التراجيديا الاغريقية ونقل اكبر آثارها الى اللغة العربية العذبة الرنين والايقاع . وكان طه

حسين هو الذي شجع لويس عوض على ترجمة «فن الشعر» لهوراس اللاتيني . وهو الذي شجع عبد الرحمن بدوي على ترجمة «كتاب الشعر» لارسطو ، وهو الذي شجع سهير القلماوي على ترجمة حواريات أفلاطون حول الشعر وتلخيص «الفصن الذهبي» لفريزر . وهؤلاء مجرد أمثلة سريعة ، لعشرات من الباحثين والمترجمين الذين تفتحوا على دراسة الكلاسيكيات ونقلوها الى لغتنا .

وكان طه حسين بذلك يريد ان يرسخ مفهوما جديدا للتراث، مؤداه ان التراث «انساني» يشتمل على الثقافة البشرية اينما وجدت . وقد أراد بذلك ان يسلك تراثنا العربي في المجرى العام لتراث الانسانية من ناحية ، والا نصد أنفسنا بالتعصب او مركبات النقص عن تراثات الآخرين . بل ان طه حسين مزج بين تراثنا والفكر العالمي حين طبق على الشعر العربي القديم مناهج البحث الغربية ، فخرج ــ وخرجنا معه ــ بأزكى الثمرات . لقد استطاع ان يكتشف الوجه الانساني للتراث جنبا الى جنب مع الوجه القومي ، وكان في ذلك الصوت الاكثر عمقا لموقف البرجوازية الثورية من قضية التراث . ولكنه ــ بطبيعة الحال ــ لم يكتشف في صميم الوجهين الانساني والقومي الملامح الاجتماعية التي تشكل بدورها بعدا متمايزا للتراث ، هو البعد الطبقي . لم تكن المرحلة التاريخية ولا تكوين طه حسين ، ليسمح باكتشاف هذا الوجه . ولكنه في حدود ما قدمه ، غيَّر تغييرا راديكاليا في مفهوم التراث السائد حينذاك على الفكر والشعور . كان التراث العربي القديم، المرحلة الاسلامية وحدها في هذا التراث ، هي كل ما يسيطر على العقل والوجدان . ومن هنا كان الفقه وعلم الكلام والشريعة والبلاغة الادبية الموروثة شعرا موزونا مقفى وسجعا منغوما ، هي الضابط والمعيار لاصالة الكاتب والشاعر او عجمتهما . وحين هز

طه حسين هذه المقاييس للاصالة ، باستضافته عناصر جديدة تماما ، أصبح من الممكن لهيكل ان يتخلى عن توقيعه المستعار على غلاف «زينب» ، واصبح من الممكن لتوفيق الحكيم ان ينقل روايته الرائدة «عودة الروح» من الفرنسية التي كتبها بها الى العربية ، بل وان يؤلف «اهل الكهف» التي احتفل بها طه حسين احتفالا شديدا وكان لمقاله الشجاع عنها اثره الكبير في اعتبار «المسرح» لونا ادبيا معترفا به . كان ميلاد المسرح والرواية في ادبنا الحديث تجسيدا فنيا لهذا المفهوم الثوري للتراث ، اذ كانا ثمرة لقاء الشكل الفني الغربي مع التجربة المحلية (الوطنية ، القومية ، سمها ما شئت) .

واذا كان أمثال هيكل والحكيم وتيمور قد أبدعوا فنيا هذا المعنى الجديد للتراث ، فان طه حسين هو صاحب الابداع الفكري . وتلك في واقع الامر اضافته الثانية، الباقية على الزمن. ذلك انه بالرغم من الغياب المبرر للبعد الطبقي في نظرته للتراث ، الا ان استيعابه لوجهي الاصالة والمعاصرة ، واكتشافه الوجهين الانساني والقومي ، وادراكه ان الواقع هو المؤشر الوحيد للرفض والقبول (حتى وان كان هذا الواقع برجوازيا والرؤية اليه ليبرالية) .. يعد ذلك كله «بداية الطريق العلمي الصحيح» لفهم التراث وامتلاكه ودوره في حياتنا . انه ليس قيمة تاريخية فحسب ، بل هو قيمة باقية سارية في امتداداتها الاكثر تقدما وتطورا . انه الاساس وتصميم البناء معا . وكما ان «اهل الكهف» كانت امتزاجا بين القالب الغربي والتجربة المحلية ، ثم انتقلت بعدئذ في اعمال الحكيم وبقية كتابنا لان تتجاوز هذا «المزج» الى التركيب ، فأثمرت مسرحا مصريا خالصا .. فان القاعدة التي شيدها طه حسين لتأسيس «نظرية للتراث» ، قد اصبحت بفضل «حضورها الدائم» وتطورات عصرنا منهجا عربيا أصيلا ومعاصرا في آن .

ولعل المستوى الرفيع الذي بلغته دراساته الاسلامية وبحثه الخطير «مستقبل الثقافة في مصر» من أهم الشواهد التطبيقية على القيمة الباقية لهذا المنهج . واذا كانت الفترة الواقعة ما بين معاهدة التهادن عام ١٩٣٦ وبداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ تسجل نهاية جيل النهضة ، فان ذلك كان تعبيرا فكريا عن افلاس الليبرالية المصرية والنهاية الاسيفة للديمقراطية البرجوازية التي حمل شعلتها حزب الوفد . وفي هذه الحدود ينبغي النظر الى «التحول الجماعي» لجيل الرواد الى «الاسلاميات» . انني لست مع القائلين بتطرف ان هذه الموجة كانت ردة رجعية ، فذلك تبسيط مبتذل للامور . ان عبقريات العقاد وسلسلة احمد امين منذ فجر الاسلام وكتابات طه حسين الاساسية «الفتنة الكبرى» و«على هامش السيرة» لا تجسد انتكاسا فكريا من زاوية المنهج ، بل هي في اطارها الاكثر علمية وحداثة من طلاسم السلفيين المليئة بالخزعبلات قد أدت دورا ايجابيا في حياة قراء الدين والمهتمين عموما بالتاريخ الاسلامي . ولكنها من زاوية اخرى كانت «توقفا عن السير» — لا ارتدادا ولا نكوصا كما أحب ان أكرر — عبّر سياسيا عن تخاذل البرجوازية المصرية عن انجاز ثورتها الوطنية الديمقراطية . كان توقيع «الوفد» بالذات على معاهدة ١٩٣٦ بمثابة اسدال الستار على الفصل الاول التراجيدي من نضال الطبقة المتوسطة المصرية . ذلك ان الثلاثينات قد شهدت نمو جنين جديد في أحشاء المجتمع هو الطبقات الشعبية التي صهرتها تجربة ثورة ١٩١٩ وطوّرتها علاقات الانتاج الصناعي الناشيء وقتئذ . وقد تمثلت هذه الطبقات الشعبية في الريف والمدينة للبرجوازية المصرية ، خطرا جاثما على صدر البرجوازية وخيالها السياسي القصير النظر وتحت تهويل الاستعمار الانجليزي لهذا الخطر ومبالغة كبار الملاك في تقييمه . هكذا كان سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ التي أثمرت دستور ١٩٢٣ هو اول من حل الحزب الشيوعي

المصري عام ١٩٢٤ والاتحادات العمالية الحديثة الولادة .. وهكذا ايضا كان حزب الوفد بقيادة مصطفى النحاس هو الذي وقّع على معاهدة ١٩٣٦ . تم ذلك كله في اطار التهادن مع الاستعمار والعرش والاقطاع . وكانت نهاية مرحلة كاملة في تاريخ مصر الحديث . ولدت بعدها ، في ظل الحرب وبعدها ، مرحلة الاربعينات المجيدة التي توجت سياسيا باللجنة الوطنية للطلبة والعمال عام ١٩٤٦ ،كما توجت بالدم على ضفاف القنال عام١٩٥١ .

وكما ان طه حسين ظل دوما واحدا من ابناء جيله ، وفريدا بينهم في نفس الوقت ، كذلك كان امره حين لم يشذ عنهم في تأليف الاسلاميات ، ولكنه انفرد بينهم بكتابه «مستقبل الثقافة في مصر» الذي يعد الختام الرائع لصفحة الديمقراطية المصرية ، اذ كتبه عام ١٩٣٩ .

اما الاسلاميات ، فربما كان اكثر كتابها تقدما من الناحية الفكرية سلسلة أحمد امين ، اذ استنار ببعض الافكار الراديكالية في رصد الملامح الاجتماعية وأحصاء السمات الاقتصادية التي شكلت المجتمع الاسلامي في تطوره التاريخي . وأما «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل ، فانه يبقى التصور العقلاني الاكثر حسما لعديد من القضايا الخلافية في حياة الرسول . وأما عبقريات العقاد فقد استضاءت بكشوف علم النفس وكذلك بالفكرة المحورية في كتاب كارليل عن الابطال . وأما طه حسين ، فهو الى جانب استفادته من مناهج البحث الغربية في التاريخ ، كان اكثرهم جاذبية وسحرا . انه يقيم جسورا حية بين القارىء المعاصر وذلك التاريخ البعيد ، وكأن شخصياته تعيش معنا وحوادثه تتحرك من حولنا .

وهم جميعا في دراساتهم هذه قد اضافوا الى مكتبة التاريخ

الاسلامي عناصر الحداثة والعقل والعلم ، وهم بذلك نظفوا العقول التي كانت تقتات على الموائد القديمة من الخرافات . وهم بذلك ادوا دورا دورا ايجابيا لا غش فيه ، ولكنه دور «التوقف» لا دور التقدم .. اذ كان اختيار الموضوع ذاته هروبا على نحو من الانحاء من مواجهة الواقع الراهن ، ثقافيا كان او اجتماعيا او سياسيا .

أما «مستقبل الثقافة في مصر» فقد جاء نقيضا لفلسفة دنلوب الاستعمارية في التعليم ، ونقيضا في نفس اللحظة للمناهج السلفية في تعليم اللغة العربية . خلاصة دنلوب انه كان يود تخريج مجموعة من «الموظفين»، وخلاصة طه حسين انه كان يبغي لمصر ان تفكر . ولا تفكير بغير ثورة على مناهج التعليم وأساليب التربية ، ولا تفكير بغير ديمقراطية تتيح «لابن الفقير وابن الغني» حظا متساويا ، اذا توافرت الموهبة فلا غنى عن تكافؤ الفرص . واصبح شعار «العلم كالماء والهواء» هو صيحة طه حسين المقرونة باسمه ، والتي ازعجت النظام المعادي للديمقراطية ازعاجا مروعا . ذلك ان المؤسسة الراسمالية المتحالفة مع كبار الملاك والثقافة الاستعمارية ، كان يعنيها في الكثير حرمان «الفقراء» ـ كما يدعو طه حسين ابناء وبنات الطبقات الشعبية ـ من التعليم ، وذلك بألا تكون الموهبة او الاستعداد او الذكاء معيارا لاستكمال مراحله ، وانما «القدرة على الدفع» . وهكذا يصبح قدر «الفقراء» جيلا بعد جيل هو «العمل» وحظ الاغنياء هو ان يكونوا «أرباب العمل» . بالاضافة الى ان المدرسة او المعهد او الجامعة ، كانت احد أجهزة المؤسسة الراسمالية من الناحية الاقتصادية ، فالدولة لا ينبغي ان تضع «المال العام» في خدمة العلم والثقافة، وانما يمكن «استغلال» الجهاز التعليمي كمصدر لربح الشركات والافراد ، لا كمصدر خسارة لدولة راس المال . ولم يكن طه حسين ينظر الى الامر من الزاوية الطبقية ، فلم يكن يعنيه ان يزول نظام العمل ورب العمل،

ولم يكن يعنيه ان تكون المدرسة او المعهد او الجامعة جهـــازا رأسماليا او لا تكون . وانما كان يعنيه اولا واخيرا ، ان هــــذا «النظام» يحرم مصر من عقول ومواهب وطاقات مفكرة تضيـــع وتتبدد في ظلمة الفقر والحرمان من فرص التعليم . كان يعلم انه من المحتمل ان يكون ابن الباشا غير مؤهل بحكم تكوينه الا لعمل يدوي ، بينما قد يكون ابن الفلاح الاجير في ارض الباشا مؤهلا بالفطرة لان يكون عالما عبقريا. و«تكافؤ الفرص في التعليم» ـ اي باسقاط عنصر القدرة على الدفع ـ هو الذي يكشف الاستعداد ويصقل الموهبة ويفتح للفطرة طريق الاكتساب. هذا هو المبدأ الاول في برنامج طه حسين . وكان المبدأ الثاني هو كفالة الحرية في اختيار مواد التخصص واصلاح مناهج التربية حتى يكـــون «التوجيه» في أضيق الحدود ، ورفع «سن الالزام» حتى لا يتهرب ابناء الفلاحين من التعليم . وكانت العناية بتدريس العربية جنبا الى جنب مع بقية اللغات الاجنبية هي الهم الذي يؤرق طه حسين على طول كتابه ، بالاضافة الى حرصه البالغ على ترسيخ «الاصول» ايا كانت شرقية او غربية .

وظل «مستقبل الثقافة في مصر» طيلة الحرب وما بعدها ، مشروعا ديمقراطيا حبيس الادراج والصدور التي تجاوبت معه ، حتى قيض لطه حسين ان يكون وزيرا للمعارف عام ١٩٥٠ فـــي وزارة الوفد الاخيرة او وزارة «حلاوة الروح» كما أطلق عليهـــا حينذاك . لقد اراد الوفد ـ حزب التقاليد الديمقراطيـــة ـ ان يستعيد روحه القديمة بعد مرحلة مريرة من الكفاح المصري البطولي في الاربعينات ضد «القبضة الحديدية» لاسماعيـــل صدقي ، و«العسكري الاسود» لابراهيم عبد الهادي ، مرحلـــة الاغتيالات (النقراشي ـ حسن البنّا ـ احمد ماهر) وحكومات الاقليـــات (حسين سري ـ نجيب الهلالي) . هكذا اراد الوفد ان يستعيـد

نفسه من براثن معاهدة ٣٦ فوقف النحاس ليعلن «من اجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ومن اجل مصر الغي معاهـــدة ١٩٣٦» . وانطلق الشعب المصري ليشعل حربه الفدائية ضد الانجليز في السويس والاسماعيلية وبور سعيد . في هذا الوقت تماما أتيح لطه حسين كوزير للمعارف ان يطبق جزءا يسيرا من برنامجه ، وبعد صراع مرير داخل مجلس الوزراء ، وافقت الحكومة علـى مجانية التعليم الابتدائي والثانوي . وكانت خطوة تقدمية باهرة في حياة المصريين . ولكن النحاس ، والوفد من ورائه ، كان قد نسي ان الزمن لا يتوقف عن السير ، وان التاريخ لا يمكن أن يعود الى الوراء . ففي الخمسة عشر عاما التي مضت على معاهدة١٩٣٦ كان المجتمع المصري الذي أرعب الطبقة المتوسطـــة فيما مضى بجنين جديد هو «الطبقات الشعبية» ارعبها حتى هادنت الرجعية المحلية والاستعمار الاجنبي ، كان هذا المجتمع يعاني أهوال الولادة المتعسرة ، ولادة المضمون الاجتماعي الجديد للثورة الوطنيـــة الديمقراطية . حتى ان آلام هذه الولادة قد انعكست على تركيب حزب الوفد نفسه ، فكانت «الطليعة الوفدية» بقيادة عزيز فهمي ومحمد مندور وغيرهما انشقاقا للشباب الراديكالي عن البنيـــة الاساسية لحزب الوفد الذي أصبح يضم تحت جناحيه أشتاتا من كبار الملاك الزراعيين والعقاريين وكبار المساهمين في الشركـات والمصانع التي يصعب التمييز بين رأس المال الوطني ورأس المال الاجنبي في تمويلها . هكذا كان التناقض بين التطور الاجتماعي لحزب الوفد والتطور الاجتماعي لمصر ، وهو التناقض الفاجع الذي عبر عن نفسه بحريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ وبأن يعلن الوفد الاحكام العرفية وان يتسلم خطاب «الاقالة» في نفس اليوم من «جلالة الملك» . كان الوفد يريد ان يستعيد روحا قد مات ، ولم يبق منه سوى الجسد المهترىء المتآكل . وكان انجاز طه حسين ــ كشأنه دائما ــ هو الصفحة الاخيرة الرائعة التي وضعت حكم

٢٣ يوليو بعدئذ امام مهمة استكمالها وجها لوجه .. فمجانية التعليم الجامعي التي أعلنها جمال عبد الناصر كانت في الحقيقة استكمالا واعيا بالمعنى الاجتماعي العميق الذي قصده طه حسين منذ أطلق شعاره «العلم كالماء والهواء» الى ان أتيح له ـ من موقع السلطة التنفيذية ـ أن يحقق الشعار . وهكذا أصبح طه حسين استثناء فرديا يؤكد قاعدة انتهاء الدور الثوري للبرجوازية المصرية في بناء المجتمع واستقلال الوطن . انه بعد معاهدة التهادن عام ١٩٣٦ التي اعلنت افلاس الديمقراطية المصرية يرفع بكتابه «مستقبل الثقافة في مصر» راية الديمقراطية عاليا . وفي العام الاول من الخمسينات يدرك الجميع ان دور حزب الطبقة الوسطى في الحكم لم يعد تجسيدا لآمال «الشعب» ابان مرحلة الغليان الكبرى ، ولكن طه حسين يخوض غمار صراع ضار ليضع كتابه ـ قبل ان تذهب الحكومة ـ موضع التنفيذ .

وقد اثبت بذلك ، وعلى نحو فريد ، ان الكاتب العظيم يستطيع ان يتجاوز «الكتلة السياسية» التي ينتمي اليها في المراحل الحرجة من التاريخ .. وان هذه «التجاوزات» هي مجموعة القيم التي تبقى منه للتاريخ .

ولكن طه حسين اثبت ايضا من ناحية اخرى ان الكاتب ، مهما بلغت عظمته ، لا يتجاوز مقتضيات التاريخ .. فالعشرون عاما الاخيرة شهدت من طه حسين تكرارا لافكار لم تعد قادرة على انجاز التقدم . وحين اصطدمت آراؤه مع الاجيال الطالعة من صلبه ، كان الرجل يكتفي «بإسداء النصيحة» او بقوله ساخرا «يوناني لا يقرأ» او بإدانته للجميع انهم «لا يقرأون» . وقد كانت معاركه مع الاجيال الجديدة أقل عنفا من معاركه القديمة مع السلفيين . ولم يكن العيب فيه ، ولا في الزمن . وانما هي مشيئة التطور الذي لم تعد الليبرالية بقادرة على انجازه او التعبير عنه .

كانت هناك طبقات جديدة تثب الى مقدمة المشهد الاجتماعي ، ومعها افكارها وقيمها ومثقفوها . وكان طه حسين قد استكان في عشه الجميل «رامتان» بشارع الهرم ، يرقب المشهد الماثل عن كثب ودون أسف .. فالبناة الجدد للفكر الجديد ، هم ابنـــاؤه الشرعيون .

وبعد .. فمعذرة عن هذه اللمحة السريعة التي يغلب عليها الطموح دون القدرة ، فما اكثر ما يمكن وينبغي ان يقال عن طه حسين ، لا بمناسبة وفاته ، بل بمناسبة «حياته» التي ستظل فينا لامد طويل ، دائمة الحضور .

١٢ ـ ١١ ـ ١٩٧٣

هكذا تكلم طه حسين لآخر مرة
« اودعكم بكثير من الألم وقليل من الأمل »

تتداخل صوره في المخيلة تداخلا مثيرا : الفتى الصغير الذي يفقد بصره في وقت مبكر نتيجة الجهل والتخلف يصبح شعاعـــا مضيئا على طريق التقدم . الصبي الفقير الذي يتعلم القرآن في الازهر يصبح النجم اللامع في صفوف السوربون . الشاب الذي رضع التراث العربي الاسلامي في ينابيعه الاولى يقف منذ بداية عمره الادبي في قفص الاتهام بالكفر والالحاد . كاتب الحـــزب الارستقراطي يختتم حياته السياسية بالانضمام الى وزارة الحزب الجماهيري .

ويطل طه حسين من تلافيف الذاكرة ، حين كنت أسرق الزمن وأدلف الى مدرج قسم اللغة العربية ، لاسمع صوته الرخيم عملاقا قويا ودودا ثابتا يستقر في القلب قبل الاذن .. يحرص على مخارج الالفاظ ويؤكد النغم بتلقائية مدروسة دون تمايل هنا أو هناك ،

دون ابهام موسيقي للمعنى ولا انتشاء بروح الشعر عن جسد العلم . لم تكن الجامعة ، بفضله ، في ذلك الوقت حشوا للمعارف في الأدمغة ورخصة لاحدى الوظائف .. وانما كانت معبدا لحرية الفكر رايتها الخفاقة هي العقل ، وظيفتها الوحيدة هي البحث والكشف .

خارج أسوارها يطل وجه طه حسين على ابناء جيلي الفقير المتعب بملمحين بارزين متناقضين : أولهما ينادي لنا بالعلم كالماء والهواء . نحن الفقراء نفهم معنى هذا الشعار ، نحياه ونعانيه . كان اهلنا يبيعون كل ما لديهم ويستدينون ولا يسددون واحيانا يموتون ، حتى ندخل المدارس والجامعات ، فلا نعيد سيرتهم المقهورة ولا نكرر فقرهم المروع . كانت الشهادة الدراسية تعني لدى الاب والام شهادة الميلاد الجديدة ، مصلا ضد الموت المجاني . كانت تعني الارث الوحيد الممكن بدلا من العمارة والارض وارصدة البنوك المتوفرة لغيرنا . هكذا كان اسم طه حسين يتسلل الى الاكواخ في القرى والبيوت الصغيرة في الاحياء الشعبية رمزا للحياة . لا يعنيهم من امره ما يقال عن «زندقته» ، ولا تهمهم هذه المناقشات الغريبة التي يسمعون أصداءها الخافتة عن حوار عنيف بينه وبين شوقي او العقاد او الدكتور هيكل . كان بالنسبة لهم نورا – هو الاعمى – يضيء لابنائهم مستقبلا لا يرونه ، هم المبصرون .

والملمح الآخر الذي رأيناه نحن ابناء هذا الجيل في وجه طه حسين ، كان ذلك الموقف «المحافظ» في الآداب والفنون . كنا في أواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات ، نتطلع بعيون مبهورة الى تلك المعركة الضارية بين القديم والجديد . كنا نعشق طه حسين ولا نزال . وكان العقاد منذ أمد بعيد يمتد الى قبيل الحرب

الثانية بقليل قد تحول عن دوره الرائد في الحداثة والتجديد . واذهلنا أن يقف طه حسين الى جانب العقاد في معركة خاسرة ، لانها ضد التاريخ . وكان طه حسين رغم أدبه الجم وعذوبته ونبله قاسيا مع المجددين حين علق على كتاباتهم قائلا جملته الشهيرة «يوناني لا يقرأ» . اما العقاد ــ رحمه الله وغفر له ــ فقد لف ودار ونادى اقرب شرطي ! وبينما تقوقع العقاد داخل صدفة محكمة الاغلاق بعد قيام حركة ٢٣ يوليو ، فان طه حسين ظل يحاور من كان يدعوهم بالجيل الجديد من أمثال لويس عوض وعبد الحميد يونس وعبد الرحمن الشرقاوي . لم يقطع صلته بهم يوما وظل حواره الشغوف بالحقيقة قائما . وبالرغم من ان الكاتب لا يتجاوز مقتضيات التاريخ ، اذ يبقى امينا لتكوينه الاجتماعي وانتمائه الفكري وخبرة الحياة والثقافة التي عاشها ، فان طه حسين برهن دائما على انه لن يسمح لنفسه بأن يقف في طريق التقدم مهما كان طريقه هو الى التقدم مختلفا . اي ان ايمانه الديموقراطي بتعدد الوسائل والاساليب بقي جوهرا اصيلا في مقومات وعيه بالوجود. هكذا لم يقف مناوئا على طول الخط لحركة الشعر «الجديد» ــ كما فعل العقاد مثلا عندما أحال شعر صلاح عبد الصبور الى لجنة النثر للاختصاص ! ــ وانما اكتفى طه حسين بالقول انه لا يرى بأسا في أن يجدد الشعراء ما شاءت لهم قريحتهم ان يجددوا في الاوزان وصور التعبير شرط ان يقدموا لنا في النهاية شعرا اولا وقبل كل شيء . تلك كانت خاتمة معركته مع الشرقاوي على صفحات «الجمهورية» . ولم يقف طه حسين مناوئا على طول الخط للادب الواقعي الجديد ، بل كتب مقدمة لاحدى مجموعات قصص يوسف ادريس الباكرة لم يأخذ عليه فيها الشكل ولا المضمون ، وانما اكتفى بنصحه ان يكتب وفق قواعد اللغة العربية الفصحى . بينما حرم المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب يوسف ادريس من جائزة القصة القصيرة بدعوى انه يكتب بالعامية ! وكما

كان طه حسين في القديم ، هو اول من رحب بـ «اهل الكهف» مسرحية توفيق الحكيم وأول من بارك هذا الشكل الدرامـــــي الجديد ودشن كاتبها كواحد من اعمدة الادب العربي الحديث .. كذلك كان استقباله لروايات نجيب محفوظ ـ الكاتب الشاب ـ حافلا ، وظل مواكبا لاعماله يلخصها لقرائه ويحللها ويشيد بها حتى ثبتت أقدام نجيب محفوظ واصبح كبيرا . بينما رفض المجمع اللغوي رواية «القاهرة الجديدة» وحرمها من الجائزة بحجة انها رواية جنسية ، فاستبدلها العقاد برواية «خان الخليلي» ! ولم يقف طه حسين مناوئا لاتجاهات الفكر الملتزم على طول الخط ، فبالرغم من قوله ان الفن كالزهرة الجميلة لا يهمها «نفع» جمالها للآخرين ولا يعنيها زكاء رائحتها ، فانه لم ينكر في نفس الوقت ان الاديب مسئول أمام ضميره وأمام الحياة وأمام الامة وأمام العصر، عن كافة المظالم والجرائم المعادية للضمير والحياة والامة والعصر . وقد اكد هذا المعنى بالحاح في رسالته لاحد مؤتمرات الادبـــاء العرب .

واذا كانت الشيخوخة قد توقفت باتصال طه حسين مـــع الاجيال عند حدود نجيب محفوظ وسهير القلماوي وعبد الرحمن بدوي ولويس عوض وعائشة عبد الرحمن ، فانه بالنسبة لنا يبقى تاريخا حيا كمثقف مصري عظيم عاش احلى سنوات العمر مناضلا وطنيا جسورا في مقدمة الصفوف. لقد كانت الوحيدة الديناميكية الحارة بين فكره وسلوكه ولا تزال نموذجا وقدوة ، فرغم فقدان البصر ورغم مؤهلاته الاكاديمية التي كانت تكفل له مكانا مريحا في برج من العاج الجامعي ، ربط طه حسين بين الثقافة والحياة ربطا اصيلا ومعاصرا أبعد ما يكون عن النظر المجرد واقرب ما يكون الى النشاط العملي الفعال . هكذا ناضل داخل الجامعة وخارجها ، بتغيير مناهجها تغييرا جذريا ، وبالاشتراك المباشر في العمـــل

السياسي . وقد تعرض لصنوف من القهر والضغط والاكراه ، كان يمكن لغيره من المبصرين ان تتراجع به الى العكوف في البيت واغراء المطالعة وغواية البحث والكتابة . ولكنه بذلك كان يكف عن ان يكون طه حسين : ذلك الذي انتصر على نفسه اولا ، فلم ير بدا من استكمال الطريق الى الانتصار على العالم من اجل تثبيت قيم الحق والخير والجمال .

كانت السيارة الصغيرة التي يجاورني داخلها لطفي الخولي من ناحية وخالد محي الدين من ناحية اخرى ، تسرع بنا في شارع الهرم وقد أثارت غبار الذكريات في مخيلتي اكثر كثيرا مما اثارت غبار الشارع العتيق . لم تكن المرة الاولى التي أزور فيها طه حسين ، فمنذ عشر سنوات تماما ، اعتدت ان اتوجه الى «رامتان» وبين يدي كتاب جديد اكون قد انجزته . ذلك انني كنت قد سمعت من صديقي الراحل انور المعداوي ان طه حسين يشكو العقوق من الجيل الجديد ، فهو لا يعرفهم ولا يدري ماذا يصنعون لانهم لا يهدونه مؤلفاتهم . وعام ٦٢ صدر لي كتابي النقدي الاول «ازمة الجنس في القصة العربية» . وتحمس له انور المعداوي ولويس عوض وسهير القلماوي ، كل على طريقته ، حماسا كبيرا . اما لويس وسهير فناقشاه بإذاعة البرنامج الثاني . وحين أتيح للدكتورة سهير ان تكون على رأس دار الكاتب العربي قررت اعادة نشره . وأما انور المعداوي فأصر على اشتراكي بجائزة المجلس الاعلى في النقد الادبي . وكانت لجنة التحكيم مشكّلة من طه حسين وسهير القلماوي ومحمد مندور وآخرين لا اذكرهم الان . ثم جاءني لويس عوض ذات يوم قائلا : الدكتور طه حسين يسأل عنك . وكنت حريصا على عدم الاتصال بأي عضو من لجنة الجائزة ولو اتصالا عاديا . غير اني ما ان سمعت اسم طه حسين حتى اهتززت فرحا وامسكت بسماعة التليفون أطلب من «العميد»

موعدا . وفي اليوم التالي كنت امامه ، لاول مرة ، في لقاء مباشر، وحدنا . سألني عمن أكون وماذا درست ، وأخيرا كيف لا أزوره (رغم علاقة القربى التي تربطني بسكرتيره السابق فريد شحاته) ثم قال لي بعطف ابوي صادق : **رغم كثرة مشاغلي فقد طلبت من فريد ان يقرأ لي صفحات من كتابك ، ولا تغتر اذا قلت لك اني لم أترك الكتاب حتى النهاية . لي عليه وعليك ملاحظات كثيرة ، ولكني حقا مفاجأ بك . الجائزة التشجيعية في النقد ، نظريا ، لامثالك ، حتى تستكملوا الطريق . ولكن ماذا نصنع بأمثال خفاجــــة** (يقصد المرحوم الدكتور صقر خفاجة الذي نال الجائزة عن كتاب «حول النقد اليونانـــي») . **لقد أثنت عليك سهير ومندور ثناء تستحقه . وأحب ان تزورني دائما .**

لعل «العميد» الان لا يدري كم سعدت ، فهذه جائزتـــي الحقيقية .. وفوجئت بأن اللجنة قررت اخراج الكتاب من الجائزة حتى أتمكن من تقديمه مرة اخرى . منذ ذلك الوقت وأنا أزور الدكتور طه حسين ، أهديه كتابا ، يسألني بامعان وتدقيق عن جيلي وماذا يكتب . يهز رأسه كثيرا ويتكلم قليـــلا . وأذكر ان التلفزيون المصري اجرى معه حوارا تاريخيا يضمه مع حوالي عشرة من كبار مثقفينا ، والتقيته بعدها . كانت فرحته لا تحد بمن كان يتصورهم خصوما فيما مضى (يقصد محمود العالم) وقد أحاطوه بعرفان صادق ومحبة غامرة .

وحين ترجلنا من السيارة : خالد محي الدين ولطفي الخولي وأنا ، كانت خطواتنا اليه تأكيدا لمعنى لا يغيب ، فأكثر الاتجاهات الفكرية امتدادا للرائد العظيم وتواصلا مع نبعه الذي لا ينضب ، هو الاتجاه النابض بأحلام شعبنا في الحرية والتقدم .

قال له لطفي الخولي : كانت الفكرة يا استاذنا أن تقوم اسرة

«الطليعة» بحوار شامل معك ، جميعنا تلامذتك، بيننا المتخصصون في التاريخ والفلسفة والادب والفن . ولكننا حتى لا نرهقك ، ورغم ان هذا الاقتراح أمنية غالية ، فاننا سوف نكتفي بأسئلة غالي شكري .

وقد كان «العميد» فيما يبدو مرهقا بالفعل الى اقصى الحدود ، جلس على مقعد خاص وغطى ساعديه ويديه بساتر من القماش الغامق لم يخف اهتزازا واضحا في الكتف وضعفا لم نعتده في الصوت . وهمس لي السكرتير الشاب الجديد انه احيانا يصاب باغماء ، فلنحذر . سألني ان أتلو عليه ما كتبت ففعلت . ابتسم بوقار ، وهو يتمتم برنين متقطع خافت : **ما شاء الله ، ستزورني كثيرا رغم قسوة البرد ، فهذا الشتاء عاصف** . وانعطف **برأسه يكلم سكرتيره : اتصل به كلما قلت لك** . ثم وجه لي الخطاب : **هل يمكنك ان تأتي في اي وقت** ؟ وأجاب خالد محي الدين ولطفي الخولي معا : **بالتأكيد** .

اما انا فلم تسعني الفرحة واكتفيت بالهمس : أرجو ألا يزعجك قدومي .

وكان الشتاء «عاصفا» ، فقد تصاعدت حركات الطلبة والمثقفين في الجامعات ونقابة الصحفيين ، وعلى مدى ثلاثة اسابيع ظللت أقطع شارع الهرم من ميدان التحرير الى فيلا «رامتان» ، وعلى مدى أكثر من اربعين ساعة ظل الرجل الكبير الذي يعاني في صمت أهوال تحدي المرض والشيخوخة ، يجيب على أسئلتي ، ويجتمع بأعضاء المجمع ، ويستفسر مني عن اخبار توفيق الحكيم . بدا لي عملاقا شامخا يصارع الزمن بارادة عنيدة ملؤها العتب على الحاضر والايمان بالماضي والامل في المستقبل .

***

قلت له ، والعقل يرمي شباكه ليضم في اهابـــه الذاكـرة والمخيلة ، واسرائيل تحتل سيناء والجولان وغزة والضفة الغربية من نهر الاردن والقدس ، والمصير العربي أصبح مسألة مصرية ، ومصر اصبحت قضية عربية .. قلت :

● من الافكار المحورية الهامة التي عرفتها بعض مراحـــل تطوركم ، ما يمكن تسميته بالفكرة المصرية في اطار حضارة البحر المتوسط ، فهل لكم ان توضحوا الظروف التاريخية التي رافقت ميلاد هذه الفكرة وأبعادها والمصير الذي انتهت اليه ؟

برزت على وجه طه حسين ابتسامة خابية ، ولم يأتني صوته القديم بهندسة الالفاظ وتنميقاتها العذبة التي تشبه الارابيسك.. وانما هو كمن يلملم أفكاره بلفظة فصيحة وأخرى عامية ، ببيت عربي قديم من الشعر وحكمة فرنسية ومثل شعبي دارج من الريف المصري ، أجاب :

ـ لماذا يخيفكم البحر المتوسط كأنه ليس بحرنا ، ام انكـــم صدقتم انه بحر الروم ، انه بحرنا كما هو بحرهم ، وهو ليس عازلا مائيا بين الامم بقدر ما هو وسيلة اتصال . ليس لدي جديد في هذه النقطة . فرنسا وايطاليا واليونان يخصوننا كما نحـــــن نخصهم . قرابتنا لهم قرابة حضارية ، فمن المستغرب ان يضمنا معهم شاطىء واحد ، ولا نتأثر بهم او نؤثر فيهم . والطبيعي ان نتبادل وإياهم التأثير والتأثر ، لا بمنطق الدائن والمدين ولا بمنطق التاجر والزبائن ، وانما بمنطق الجوار . قد يسيء احدهم معاملة جاره وقد يحسن الآخر ، قد تتيح الظروف للجميع معاملة الند للند وقد تسمح بقهر الواحد الآخر . ولكن التأثر والتأثير موجودان في جميع الاحوال . وليس المهم ان ناخذ منهم بقدر عطائنا لهم ،

فقد لا يكون بحوزتنا الان ما نعطيه . ولكن المهم هو احتكاك العقل والضمير والروح . لا تملك اليونان في وقتنا الحاضر ما تعطيه لنا او لغيرنا ، رغم اهمية شاعرهم الفائز بجائزة نوبل ــ سفيريس ــ واهمية الروائي الضخم كازانزاكس .. ولكن اليونان القديمة اعطتنا ، وأقول لك انها لا زالت قادرة على العطاء . بغير سوفوكل ويوريبيدس وسخيلوس وأرسطو وأفلاطون وهيرودوت ، لا نستطيع ان نقيم دعائم نهضتنا الحضارية . هكذا فعل الفرنسيون والايطاليون في فجر نهضتهم .

وتهدج صوته منفعلا حتى انني كدت أجمع اوراقي وانصرف، ثم صمت قليلا ، وأكمل :

ــ توجه المصريين شطر اوروبا من اليونان واللاتين حتى اندريه جيد وسارتر وكافكا ، هو توجه حضاري ثقافي تمليه اعتبارات الجيرة الروحية على شواطىء البحر المتوسط .. اما الآلات والماكينات ، فربما كانت اليابان والصين اكثر حذقا من الاوروبيين في هذا الصدد . ولكن الحضارات الآسيوية لا تستطيع ان تؤثر في عقلي وروحي وان بنت لي اعلى العمارات وشيدت لي أرفع اجهزة اللاسلكي .

بتهذيب شديد استغللت فرصة صمته وقلت :

● ولكن العرب لا يسكنون جميعا شواطىء البحر المتوسط ، بعضهم ينتمي الى احدى الحضارات الآسيوية ، هي الحضارة العربية الاسلامية .

بهدوء أشد هز راسه وأجاب :

ـ مصر فريدة بموقعها الجغرافي والتاريخي ، اي بحضارتها. انها شمالا تتصل بحوض البحر الابيض المتوسط اي بأوروبا ، وجنوبا بمجرى النيل ، اي بأفريقيا ، وشرقا وغربا بمجموعة الدول العربية المسلمة عن طريق اللغة والدين .. وبعض هذه الدول يقع على شاطىء البحر المتوسط ايضا . كذلك فنحن تاريخيا عرفنا الوثنية والتوحيد الاخناتوني والمسيحية والاسلام . غزونا بعض الاقطار وغزتنا بعض الاقطار كاليونان والرومان والفرس والترك والفرنسيين والانجليز .

● هل معنى ذلك اننا نساوي بين الجيرة اللغوية والدينية والجيرة الجغرافية ، اي بين المصريين والعرب من ناحية وبين المصريين والاوروبيين من ناحية اخرى ؟

ـ من قال ذلك ؟ انا لم أقل مثل هذا الكلام ابدا . ولا تقل عن جيرتنا للاوروبيين انها جيرة جغرافية بل هي تاريخية ايضا . اي انها جيرة حضارية . اما العرب فان وحدة اللغة والدين تجعل ارتباطنا بهم اقوى ، انه ارتباط الثقافة والعقيدة . ولكننا جميعا ـ مصريين وعربا ـ نحتاج الى التفاعل الحضاري مع اوروبا احتياجنا الى الحياة نفسها ، وما اقوله بوضوح ، هو ان شعوب البحر المتوسط مؤهلة اكثر من غيرها لهذا التفاعل .

استأذنت «العميد» في كلمات قليلة :

● انتماء مصر العربي ، فيما ارى وأؤمن ، لا يقتصر على الثقافة والعقيدة ، بل يتجاوز هذين العنصرين الى وحدة الارض والتاريخ مما يحمل في طياته تكوينا نفسيا مشتركا ومتعاظما في موازاة النضال المشترك ضد كافة اشكال القهر والعبودية .. هذا التكوين يفتح الباب واسعا لاحتمالات وحدة اقتصادية كذلك ،

فنحن في خاتمة المطاف امة واحدة .

رنت على شفتيه صدى كلمات مدغومة تبينت منها :

ـ لا احد ينكر ذلك .. لا احد .

كان سؤالي الثاني امتدادا لما يمور به الشارع المصري من اضطرابات تغلي تحت الارض وفوقها بما يشبه ألزلازل والبراكين. كانت الحريات الديمقراطية في موازاة حرب ألتحرير أعلى الشعارات صوتا .

وطه حسين هو احد رواد الفكر الليبرالي في مصر . عن احمد لطفي ألسيد تلقى البذرة الاولى ، وفي اوروبا نما الزرع وترعرعت الشجرة ، وفي خضم الصراع البطولي للشعب المصري ضد العرش المتحالف مع الاقطاع والاستعمار ، أزهرت وأثمرت .

ولكن الليبرالية المصرية لم تحل دون ألدكتاتورية المقنعة ، فاستولت حكومات الاقلية على السلطة الحيز الزمني الاكبر ، وتفاقم التفاوت الطبقي الحاد بين فئات الشعب الاجتماعية . وهكذا أفلسبت الديمقراطية البرجوازية المصرية افلاسا مروعا ، تجسد يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ بحريق القاهرة واعلان الاحكام العرفية وتوقف العمل الفدائي على شاطىء القنال . وشرعت بلادنا مع حركة ٢٣ يوليو في بناء تجربة جديدة لا مكان فيها لليبرالية **فقد** حلت الاحزاب وأممت الصحف وشكلت التنظيم السياسي **الواحد.** انها تجربة مغايرة للعمل الوطني قبل ١٩٥٢ مغايرة في الاسلوب والهدف على السواء ، عرفت المد والجزر والسلب والايجاب . وبرغم التغييرات الاجتماعية المشهودة ، منذ تأميم قناة السويس

ودحر العدوان الثلاثي بجلاء الانجليز وتوفير صيغة طبقية جديدة أقل ظلما لغالبية جماهير الشعب وبناء السد العالي والتصنيع الثقيل ومجانية التعليم ، فقد ظلت قضية التحرير (من الاحتلال الاسرائيلي بعد هزيمة ٦٧) والتفاوت الاجتماعي (بوثوب الطبقة الجديدة وتمركز البيروقراطية) ومسألة الديموقراطية (بدعم أجهزة القهر وابتعادها عن الرقابة الشعبية) أصبحت هذه القضايا من الالحاح على الوجدان العام ، بحيث انها تثير مسألة الليبرالية من جديد . ووجدتني اقول لطه حسين :

● لا شك ان الفكرة الليبرالية كانت محورا آخر في تكوين طه حسين المفكر كما يتضح ذلك من فهمكم لقضية الديموقراطية كما انعكست في كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» ، وكما انعكست في موقفكم من قضية المرأة ودخولها الحرم الجامعي في عهدكم .. فما هي المنابع الرئيسية التي استقيتم منها هذه الفكرة ، وكيف تمكنتم من ايجاد التفاعل بينها وبين الواقع المصري ، وما هي المكاسب او الخسائر التي ترونها قد عادت عليكم او على الفكر او على الوطن من ورائها ؟

ـ اذا كانت اوروبا وأمريكا قد تنكرتا للحرية ، فلا ينبغي ان ننساق نحن في هذا التيار ونتنكر لها . الاحتكارات ضد الحرية داخل المجتمع ، والاستعمار ضدها خارجه . هذه تجربة اسيفة لا يحق لنا ان نفقد الايمان بالحرية بسببها. وإذا كانت الديمقراطية في مصر السابقة على الثورة قد أخفقت ، فلا يعني هذا ان الديموقراطية في ذاتها مخطئة . والحرية كل لا يتجزأ ، هكذا تعلمت من اليونان الاقدمين ومن الاوروبيين المعاصرين ، ومن أبطال الوطنية المصرية من أمثال احمد لطفي السيد . والحرية ليست حكرا لمجتمع دون آخر ولا لفرد دون آخر ولا لطبقة دون اخرى .

بذلك تفقد الكلمة معناها ، وابحثوا عن كلمة اخـــرى . المقياس الوحيد لاي تقدم او حضارة هو مدى حرية الوطن والمواطن ، اما الصناعة والمعرفة والازدهار الاقتصادي والتفوق العسكري ، فكلها نتائج للحرية . ولا خسارة في الحرية الا للاغلال بكافة أنواعهـــا فردية واجتماعية فكرية ومادية . ابحثوا عن اروع وأجمل وأنبل ما في مصر تجدونه من ثمار الحرية ، اما أقبح وأسوأ ما في مصر فانه قد نبت وترعرع في غيابها .

***

كان ما يدعى بمنهج الشك الديكارتي هو بداية العاصفة التي ألمت بطه حسين والادب العربي معا ، ذلك ان قصة كتابه «فـــي الشعر الجاهلي» تبقى علامة فارقة في تاريخنا الثقافي والاجتماعي والسياسي جميعا . كان الكتاب حرثا عميقا لارض ماضينا وتراثنا أحدث في زمنه «هزة كونية» في رؤانا وتفكيرنا . بشكوى مـــن طالب ازهري فتحت النيابة العامة محضرا للتحقيق مع طه حسين، من فوق منابر المساجد انصبت فوق رأسه اللعنات بالتكفــــير والخروج على السلف الصالح ، في مجلس النواب ثارت الزوبعة العاتية حول بقائه في الجامعة . ولفظت المطابع سبعة مجلدات في الرد عليه من المشايخ والادباء والعلماء . واسودت الصحـــــف بعشرات المقالات التي تطالب برأسه وتهدر دمه . ولاول مرة يصبح اسم استاذ جامعي على كل لسان في مصر وخارجها ، قليلون معه والغالبية ضده .

وهو صامد . كان يملي على طلابه بقسم اللغة العربية في كلية الآداب فصول الكتاب فصلا فصلا فلم يحدث شيء . وحين أخرجه الى الناس مطبوعا في دار الكتب عام ١٩٢٦ قامت القيامة ولــــم

تقعد . صادروا النسخ المطبوعة من الاسواق ، ولكنهم لم يتمكنوا من مصادرة المنهج في العقول والاجيال . بل لقد تطور المنهج منذ ذلك الوقت واغتنى بما اضافه وحذفه وعدّله النقاد والباحثون العرب من أقصى المشرق الى أقصى المغرب . ذلك ان بواكير المنهج العلمي في النقد الادبي ، وتطبيقه الحي الخلاق على التراث العربي ، لم يكن مزاجا شخصيا فحسب من جانب طه حسين ، وانما كان استجابة موضوعية لاحتياج فعلي في باطن ارضنا ، احتياجنا الى التقدم ودرء التخلف . وكما ان ديكارت نفسه قد عانى الاهوال من الكنيسة والخرافات الشائعة المنسوبة الى المسيحية ، هكذا عانى طه حسين في تثبيت أركان المنهج العقلي. ولم يكن ما اخذه عن ديكارت سوى البذور الاولى التي ناسبت حينذاك متطلبات الفكر البرجوازي الناشيء . قلت للثائر القديم :

● كان لاستحداثكم المنهج الديكارتي في تقييم التراث العربي دوي هائل في عشرينات هذا القرن ، فهل لكم ان تتفضلوا بتقييم الاثر الذي أحدثه ذلك المنهج فيما بعد في ثقافتنا ، سواء بالسلب او الايجاب ، وأن توضحوا لنا جوهر الصراع الذي نشب غداة هذا الحدث ، وما اذا كان هذا الجوهر لا يزال باقيا في محيطنا لفكري، وما هو تطوره منذ ذلك الوقت الى الان ، وما هي الاشكال التي يأخذها عند ظهوره واحتدام الازمة ؟

شعرت بأن طه حسين يتأملني مليا ويطيل التأمل حين ظل ـ بعد ان أنهيت السؤال ـ وكأنه يرهف السمع الى تكملة ، وكما حاولت ان أشير الى ان هذا هو كل سؤالي ، استبقني هو الى القول :

ـ نعم ، نعم .

ثم قاطع نفسه مستأنفا :

ـ لماذا تقولون ((تقييم)) وصحيحها ((تقويم)) ؟ تبنيكم للاخطاء الشائعة ، انتم ابناء الجيل الجديد ، يدعو للاسف . انتم لا تكتفون بكسر عنق اللغة وانما تزهقون روح البلاغة ايضا .

وصمت «العميد» وهو يبتسم ، لم أعلق ، انتظرته ليقول :

ـ المهم ، انت تنبش تاريخا قديما . اما الاثر الذي احدثـــه كتابي ((في الشعر الجاهلي)) فاني افترض انكم أعرف به مني ، او هذا ما ينبغي ان يكون . تلامذتي يقولون انه أحدث تغييرا عميقا في منهج الدراسات الادبية العربية الحديثة . أرجو ذلك . وأسمع ان بعضهم قد تطرف بهذا المنهج كثيرا ، ورغم ذلك فالدنيا تغيرت ايضا فلم أسمع ان احد الباحثين قدم للمحاكمة بسبب كتاب في الادب. لقد حزنت حين فهمت ان الازهر قد طالب بمصادرة احدى روايات نجيب محفوظ (يقصد اولاد حارتنا) وانهم صادروها . كذلـــك ((التمثيل)) فقد سمعت انهم حرموا الجمهور من احدى ((التمثيليات)) ليلة العرض (يقصد مسرحية المخططين ليوسف ادريس) .

هنا هممت بما يشي برغبتي في الكلام . صمت الدكتـــور فقلت :

● هناك عشرات الاعمال التي لم تر النور ، لان الرقابة في ايامنا لا تسمح بالنشر الا بعد الاطلاع . وهكذا فليست هنـــاك محاكمات كتلك التي شهدتها ايامكم ، لان الكتاب لا يرى النـــور اصلا . ولولا التدخل الشخصي لجمال عبد الناصر لما ظهر كتاب «محمد رسول الحرية» لعبد الرحمن الشرقاوي الذي أبـــرق

لسيادته بموقف الرقابة المتعنت . ولولاه ايضا لما ظهر كتاب «في البدء كان الكلمة» لخالد محمد خالد الذي أتيح له ان يجتمع بالرئيس الراحل في منزله اربع ساعات . ولكن عدد الذين لم يبرقوا الى رئيس الجمهورية ولم يجتمعوا به يتعذر على الاحصاء. وعدد الذين دخلوا من المثقفين السجون والمعتقلات يفوق التصور. هكذا تجد اهم الكتابات المصرية طريقها للنشر في بيروت .

قاطعني بمودة بالغة ليقول :

ـ موقف السلطة من حرية الفكر في كل زمان ومكان لا يدعو للارتياح تماما . انه موقف نسبي تمليه اعتبارات طارئة . ولكن الذي يدعوني للانزعاج هو المناخ العام ، هو الرأي العام . يخيل الي في صومعتي اننا عشنا انا وأبناء جيلي في مناخ اكثر سماحة وأرحب صدرا . فأنتم تقولون احيانا ما سبق ان قلناه نحن بطريقة أوضح وأحيانا اخرى تقولون أقل مما قلناه الى هذه الدرجة او تلك. ومع هذا فاني اسمع ضجيجا غريبا، لم نعرفه نحن غالبا الا حين اتهمت انا بالمساس بالمقدسات ، وحين أتهم العقاد بالعيب في الذات الملكية ، وحين أتهم سلامه موسى (وهنا ضحك طه حسين من كل قلبه) بالقاء قنبلة في سينما مترو. الفكر لا يمكن مصادرته والعقيدة يستحيل سجنها والعنف يولد العنف ، أفلا نرحم أنفسنا حتى نستحق رحمة الله وحتى يكون غيرنا أرحم بنا. تلك هي النتيجة التي انتهت اليها معركة «في الشعر الجاهلي» وكل معارك الحرية في مصر وغيرها من الامم . لا سبيل لتخطئة الفكر بالعنف ، وانما الفكر في مواجهة الفكر . والحياة وحدها كفيلة بتصفية الضار وتنمية الحق والخير والجمال .

***

«ايام» طه حسين عاشت في وجداننا لحظة لحظة ، غارت في ضميرنا وخيالنا يأسا وأملا ، كانت دليلنا الى التخلف المميت في صعيدنا وريفنا بنخيله وأكواخه وقيمه وعاداته ، وكانت حافزنا لمعرفة سر «العبقري» الذي تحدى هذا الجدار الاصم المواجـــه للتقدم . كانت سلوانا في ليالي المحنة الحالكة الظلمة ، عبرهـــا حاولنا ان نكتشف سر النور الساطع الذي انبثق في رأس الصبي الصغير حتى هداه الى دنيا واسعة الارجاء لا يراها المبصرون .

حين كبرنا ، كبرت معنا «الايام» ولم تصغر بمضي الزمن . ولكن وجداننا اتسع هو الآخر لايام اخرى عشناها مع ديكنز وبلزاك وتولستوي ودوستويفسكي وجوركي وشتاينبك وهمنجواي و.. وقلت لرائد الحداثة في النقد العربي وصاحب «الايام» تأليفـــا وترجمة حياة :

● منذ صدرت «الايام» والنقاد بشأنها حائرون ، على الرغم من اجماعهم على كونها عمل فني كبير . تنبع حيرتهم من شكلهـــا الفني ، هل هي اقرب الى الترجمة الذاتية كالمذكرات ، ام انها عمل روائي محض وان اعتمد على السيرة الشخصية . ولا ريب ان بطل الايام وصاحبها لديه الكثير في حل هذه المشكلة ، لان خالق العمل يدري على الاقل ماذا كان يهدف من صياغته على هذا النحو او ذاك .

ـ لا أدري .. هل ترونها مشكلة حقا ؟ رواية او سيرة ذاتية؟ وما الفرق . الادب كله سيرة ذاتية ، حتـــى حين يؤرخ الاديب لاحداث مضت او حين يرمز بالاساطير لفكرة معاصرة . الادب ذاتي وتجسيده للموضوع موقف شخصي . ألا ترون توفيق الحكيم في «عودة الروح» ونجيب محفوظ في ثلاثية «بين القصرين»، وقبلهما هيكل في «زينب» ؟ ألا ترون ديكنز في «اولفرتويست» وفلوبير في

«مدام بوفاري» وسارتر في «طرق الحرية» وتولستوي في «انا كارنينا» ودوستويفسكي في «الاخوة كارامازوف» ؟ لماذا تحرموني من الوجود في «الايام» حتى تسمونها رواية ؟ ومن ذا الذي قال لكم ان الرواية اعلى مرتبة من السيرة الشخصية في موازين الادب؟ لتكن «الايام» رواية او سيرة شخصية ، فهذا لا يعنيني وانما يعنيكم انتم، ما يهمني حقا هو وصولها وتأثيرها فيكم وفي غيركم.. الى اي مدى وصلت وأثرت ؟

قلت :

● تأثيرها ليس موضع شك يا سيدي العميد .

ثم استطردت :

● في «شجرة البؤس» و«دعاء الكروان» و«أديب» ميل واضح الى الاتجاه الرومانتيكي في فن الرواية ، فهل لكم ان تبينوا لنا جذور هذا الاتجاه في ادبكم سواء ما اتصل منها بتكوينكم النفسي او بتكوين العصر الذي كتبت فيه هذه الروايات ، او بثقافتكم ؟

ـ الرومانتيكية ؟ ربما . هل تقصد بها الاسلوب الشعري الحزين ؟ لا أدري . أليست هناك «الواقعية» التي تفهمونها وتحبونها في «شجرة البؤس» و«المعذبون في الارض» ؟ قد يؤدي بكم شغفكم بالتصنيف الى وصفها بالواقعية الرومانتيكية . لقد استهواني الرومانتيكيون الفرنسيون في مطلع شبابي حين كنت اختلف الى الدرس في السوربون ، ولان زوجتي ايضا كانت تحبهم . غير ان الكلاسيكيين والمحدثين ـ بالمعيار الزمني لا الفني ـ جذبوا انتباهي واهتمامي اكثر . لقد احببت سوفوكل والجاحظ

واندريه جيد وأبو العلاء ونجيب محفوظ . هؤلاء رومانتيكيون ؟ لا تنس ان دراستي الاولى لم تكن ادبية خالصة ، فقد درست القانون والاقتصاد والفلسفة والاجتماع على أيدي الفحول من العلمـــاء والاساتذة الفرنسيين الذين تسمعون عنهم فقط او تقرأون حولهم بالكاد . لم أذكر لك اسم شكسبير ، لانني أسألك اين تضعه : هل هو كلاسيكي ام رومانتيكي ام واقعي ؟ أجيبك انه كل ذلك ، لانه فنان عظيم ، او هو «فنان» وكفـــى .. الفن ليس كالازياء ولا كالماكينات يتغير من عام الى آخر . هناك فن او لا فن ، لا علاقة له بالزمن، فقد أراني معاصرا لشكسبير حين يقرأ عليّ او حين استمع اليه في التمثيل ، ولا أراني كذلك مع احد ابناء جيلي او جيلكم . الفن لا يعرف الزمان والمكان ولا تفسير لذلك حتى الان ، لا تفسير للموهبة والعبقرية . النقد يستعين بالمجتمع والتاريخ وبقية العلوم الانسانية ويجتهد في التحليل والتعليل والتأويل . وهذا كله مفيد بغير شك ، ولكنه لا يكتشف مطلقا سر الخلق الفني . أكاد اقول ان هذا السر كلغز الوجود نفسه، فالعلوم الطبيعية بنظرياتها وقوانينها تكتشف جديدا كل يوم تفيد منه الانسانية بغير شك ، فالبشرية المسلحة بالعلم تسيطر على الطبيعة ولكنها لا تكتشف السر . هكذا النقد يفيد القدرة على التذوق والفهم ، غير ان سر الاسرار في الابداع الفني يظل مستعصيا على البحث والدراسة والكشف . هل نأسى لذلك ؟ ابدا ، فربما كان هذا السر دافعا لمزيد من المعرفة وحافزا لمزيد من التقدم . ان شهوة المعرفة تخمد لو اننا أخرجنا السر من القمقم .

ولا يعني ذلك ان نرتاح الى ايمان العجائز ونطمئن الـــى الخرافات ، سواء في العلم الطبيعي او في الخلق الفنـــي . سر الابداع او سر الوجود لا يعني أن ثمة قوة مفارقة للطبيعة قـــد فعلت ما تراه وانتهى الأمر . التفسير المادي كالتفسير الغيبي أعجز

من ان يقيم البرهان والشهادة على الحقيقة الفنية او الكونية . انها محاولات تخضع للصواب والخطأ ، تضر وتفيد ، ولكنها لا تكتشف اللغز الذي ارى بقاءه الحتمي ضروريا لبقاء الحياة والفن علـــى السواء .

كان طه حسين يتكلم وقد استعاد صوته القديم في مدرجات كلية الآداب ، لا أعتقد انه كان يخاطبني وحدي ، أتصور مـــن حديثه المتدفق الصبور المتأني ان خياله قد تعلق بجموع غفيرة من الطلاب . ورغم انه في كلمات قليلة أثار لدي العديد من التساؤلات حول موقع هذه الكلمات من اتجاهه في النقد والفن وموقعها من اتجاهات العصر ، الا ان حماسه المفاجيء وأنفاسه المبهورة قد ألغت عندي اية رغبة في الاستفسار او التساؤل او التعليق .

***

كانت دراسة اليونانية واللاتينية ولا تزال من أشق مقررات طلاب الآداب ، وكان افتتاح قسم الكلاسيكيات بالجامعة حدثا لا زال طلابه هم أقل عددا من طلاب اي قسم آخر . رغم ذلك فان أجيالا متعاقبة من الاساتذة والطلاب تخصصت وتفرغت لدراسة اللغات القديمة وآدابها . وبعد ان كان ارسطو وأفلاطون وسوفوكل وهوراس ينقلون الى لغتنا عن طريق الانجليزية والفرنسية، تيسرت لنا سبل نقلهم وغيرهم عن الامهات والاصول والمصادر الاولى .

ولم تكن اللغات القديمة في ذاتهـــــا هدفا ، وانما كانت الحضارات القديمة هي الهدف ، خاصة ثقافاتها وفنونها . من هنا، وحتى يتم اعداد المؤهلين لترجمة الآثار القديمة عن لغاتها الاصلية، قام طه حسين بالتركيز على دراسة اليونان واللاتين ونقل آدابهم

وفنونهم ولو عن لغات وسيطة .. جنبا الى جنب مع جهـــوده الضخمة داخل الجامعة في تعليم اللغات الاصلية . هكذا وجدتني اقول لاول من علمنا تذوق أوديب والكترا وأوريست في لغة عربية أصيلة ومعاصرة :

● في مطلع هذا القرن استضافت اللغة العربية لاول مـــرة التراث اليوناني في الدراما . وقد تم ذلك بواسطة ما نقلتموه عن عمالقة المسرح الاغريقي. ولا يخفى عن سيادتكم انه منذ ذلك الحين اصبحت اليونانيات تشكل تيارا قويا داخل الجامعـة وخارجها . والسؤال في هذه النقطة مزدوج : الى اي مدى كان هذا التيار عند نشأته على أيديكم ملبيا لاحتياجات موضوعية في واقع المجتمع المصري والثقافة العربية بشكل عام ؟ والى اي مـــدى ترون ان الامتدادات المعاصرة لهذا التيار تقوم بواجبها على نفس المستوى (هنا نبهني الدكتور طه حسين الى تصحيح العبارة بالقول : المستوى نفسه) من الاحساس بالمسئولية الذي لقيه التراث اليوناني.فـــي بلادنا عند بدايات هذا القرن ؟ ما هي النواقص والعيوب ، وكيف يمكن التغلب عليها ؟

عندئذ اراح طه حسين رأسه الى أعلى ممليا بما يشبه التأكيد على الافكار قبل العبارات :

ـ اليونان آباء الحضارة الحديثة، آباء عصر النهضة الاوروبية. لا استطيع ان أخطف سارتر خطفا من جـــذوره .. اذا ابتغيت لوطني ان ينهض ويلحق بركب الحضارة ، عليّ ا ن أقوده الى جذور النهضة العالمية الحاضرة . القائلون بالتراث في بلادنا ينسون او يتناسون اليونان ، بذلك هم يجهلون او يتجاهلون ــ والنتيجـة سواء ــ ان الحضارة العربية الاسلامية في أزهى عصورها نقلت

اليونان . بل ان بعض الاوروبيين يبالغون في هذه النقطة عندما يحددون فضل العرب عليهم في نقل اليونان اليهم . لا نهضة لاوروبا ولا لغيرها دون اليونان ، ثقافتهم وحضارتهم . لماذا لا نقول انه من أبرز تقاليد الفكر العربي الاسلامي المتحضر هو الاحتكاك بالاغريق ، ونكتفي باحياء علوم الدين للغزالي ؟

.. وصمت طه حسين قليلا ، ثم قال :

ـ عليك ان تذكر فضل احمد لطفي السيد في نقل ارسطو . كان عمله فذا ورائدا ، هو «استاذ الجيل» بحق . اذكر ايضا جهود الشباب أمثال عبد الرحمن بدوي وسهير القلماوي وصقر خفاجة وزكي نجيب محمود ولويس عوض وكل من نقل عملا يونانيا في الفلسفة او الفن او النقد ولو تم ذلك عن لغة اخرى غير اليونانية . هؤلاء رغم اختلاف نوازعهم وتباين ثقافاتهم ومواهبهم وخبراتهم ، يدركون اول الطريق لنهضة أمتهم من سباتها الطويل . هؤلاء وطنيون قبل ان يكونوا علماء . انهم ينشدون اكثر من غيرهم من ادعياء التراث ولا أقول دعاته تقدم بلادهم ورفعتها بين الامم .

● في خط موازٍ لاهتمامكم بالتراث اليوناني ، تلقينا اهتمامكم بالادب الفرنسي . ولكن الملاحظ ان التيار اليوناني في الثقافة المصرية كان له ابعد الاثر في الاجيال المتلاحقة ، أما الادب الفرنسي في ما أعتقد ، فانه لم يحظ بدرجة من الرعاية والاهتمام تخرج به عن الدائرة الضيقة التي يعيش فيها بيننا . فاذا كانت هذه الظاهرة صحيحة ، فما هو تعليلكم لها ؟

والتفت الدكتور طه حسين ناحيتي متسائلا بدهشة :

ـ ماذا يفعل اساتذة قسم اللغة الفرنسية في كليات الآداب

اذن ، وماذا يفعل المبعوثون الى فرنسا ؟ انني لا أجيبك مستنكرا وانما أريد ان أعرف .

قلت وأنا أحاول جمع شتات الفكر :

● قصدت يا سيدي العميد ان الاتجاه الغالب على النقد الادبي ، مثلا ، يصدر عن التقاليد الانجلوسكسونية .. فرشاد رشدي ولويس عوض وعلي الراعي ، رغم اختلاف مناهجهم في التفكير الادبي ، فهم يصدرون عن الادب الانجليزي ، وكذلك عبد القادر القط رغم تخصصه في آداب اللغة العربية . بعض النقاد الآخرين متأثرون باتجاه الادب والفن في البلدان الاشتراكية . قلة قليلة لا تشكل تيارا ، هي التي تأثرت بالادب الفرنسي والثقافة اللاتينية عموما ، وتبدو الترجمة والتعريف والتلخيص كما لو كان العمل الوحيد لهذه القلة ، اما بصماتها على الادب فهي شبه معدومة . لم يعد يظهر أمثال توفيق الحكيم وحسين فوزي ويحيى حقي ومحمود تيمور ومحمد مندور . شعرنا « الجديد » متأثر في الاغلب بالتجارب الانجليزية خصوصا عن اليوت ، مسرحنا متأثر بعديد من الاتجاهات من بينها بيرانديللو وبريخت وبيتر فايس . لا شك ان سارتر وكامو وميرولوبونتي وجابرييل مارسيل وبيكاسو وجان كوكتو ، بالاضافة الى كلاسيكيات الفكر والفن الفرنسي يملأ الخلفية الثقافية لادبائنا وفنانينا .. ولكن بصماتهم على الانتاج الثقافي ، والاستهلاك بالتالي ، أقل وضوحا من بصمات الثقافة الانجليزية والروسية مثلا .

ولم يعلق طه حسين . راح في تفكير عميق .



اردت ان اقطع الرحلة الموضوعية مع طه حسين بسؤال يبدو شخصيا ، فأنا انتمي الى جيل تربى على اعداد مجلة «الكاتب المصري» . بين الرسالة والثقافة والكتاب ، كانت «الكاتب المصري» اكثر المنابر الفكرية والادبية قربا الى المتغيرات العقلية والشعورية التي أدركت جيلنا غداة الحرب العالمية الثانية . قلت له :

● لا تزل أعداد «الكاتب المصري» التي ظهرت في الاربعينات من هذا القرن ، والتي حظيت طوال فترة صدورها القصيرة برياستكم لتحريرها ، لا تزال أعداد هذه المجلة مدرسة يؤمها الشبان الجدد كلما تاقت نفوسهم للثقافة الجادة . ولست أظن الا ان معاصريها ايضا كانوا يقدرونها الى أبعد حد .. فما هو اولاً المنهج الذي اتبعتموه في أن تصل هذه المجلة الى ذلك المستوى الرفيع ، وعلاقة ذلك بالفكر العربي حينذاك ، وما هو ثانيا السبب او الاسباب التي أدت الى احتجابها بينما تبقت في السوق مجلات اخرى تقل عنها كثيرا ؟

وتكهرب الجو فجأة ، احتقن وجه استاذنا الكبير ، وارتبكت قليلا ثم خشيت من بوادر ازمة صحية تثقل وطأتها على جسده الضعيف ولملمت نفسي استعدادا للرحيل . وأحس صاحب القلب الكبير بما أعانيه فأشار عليّ بالبقاء . صمت طويلا . شيئا فشيئا استعاد صورته الطبيعية ، وقال :

ـ هذه قصة قديمة ، قديمة جدا . كانت المجلة ومطبوعاتها منارة للحرية . كان كبار الكتاب الاوروبيين يكتبون في «الكاتب المصري» خصيصا ومباشرة . وكان الجيل الجديد يعرض افكاره. سهير لخصت «الغصن الذهبي» لفريزر . لويس كتب ابحاثه الباكرة في الادب الانجليزي . رشاد رشدي شرح المعادل الموضوعي ، مع

الشباب جنبا الى جنب كان الكبار يكتبون . سلامه موسى نشر «تربيته» كلها في «الكاتب المصري» . هذا الكتاب اعظم ما كتب ، وقد نشرته في مطبوعات المجلة بعد ذلك . كانت مصر تغلي ، وكانت «الكاتب المصري» تعبيرا عن هذا الغليان .

عاد الى الصمت برهة ثم قال بسرعة :

ـ وكما اجهضت الدكتاتورية حرية الشعب احتجبت «الكاتب المصري » .

وحتى لا تراوده «الازمة» الغريبة التي وشت لي بأن ثمة سرا وراء احتجاب «الكاتب المصري» تحولت بالسؤال وجهة اخرى :

● لقد أتيحت لجيلكم فرصة ان يعمل بالصحافة جنبا الى جنب مع الادب ، فماذا ترون من خلال تجربتكم الشخصية : هل أفادت الصحافة الادب ، وهل أفاد الادب الصحافة ، في ذلك الحين ؟

اخذ نفسا عميقا وراح يجيب بتؤدة وتركيز :

ـ جميعنا تقريبا عملنا بالصحافة . هيكل (يقصد الدكتور محمد حسنين هيكل مؤلف زينب) هو الذي أغراني في البداية . ولكن الجميع ، كالعقاد والمازني وسلامه موسى ، عملوا في الصحافة . لم يكن الامر تنازلا من جانبنا ، ولا استهلاكا لنا من جانب الصحافة . الظاهرة تعكس في جوهرها الاعمق اهتمام الرأي العام ـ معبرا عنه بالصحافة ـ بالثقافة الجادة . كان الناس في ذلك الوقت يهتمون بأسماء فرويد وبرنارد شو وهكسلي والمتنبي اهتمامهم بأخبار تشرشل وهتلر وستالين وموسوليني وسعد زغلول وعدلي يكن واسماعيل صدقي والنحاس .

يخيل الي " ان الناس لم تعد تهتم بالثقافة الجادة ، ومن السياسة تأخذ القشور وعناوين الصحف والصور . هكذا اصبحت ثقافة العامة في زماننا هي ثقافة الخاصة في زمانكم . ما هو السبب ، وقد كثر عدد المدارس والجامعات وتعددت اجهزة الاعلام التي تخاطب الاميين كالسينما ودور التمثيل والاذاعة والتلفزيون؟ ثمة شيء خطأ قد حدث ، ولكن ما هو ؟ لا تذكر لي عصر السرعة، فاني أكره هذا التعبير المضلل . سرعة الجهل شيء وسرعة الثقافة شيء آخر . لم نكن نفرق بين طلابنا وقراء الصحف ، فلم نكن مزدوجي الشخصية ولم نتردى في هاوية التعجل والسطحية والغثاثة . أكبر مؤلفاتنا هي فصول كتبت اولا للصحف ، او لطلاب الجامعة او للاثنين معا .

الان ينتابني الاسف حين اجد الصحافة تسرق خيرة أدبائنا ونقادنا وتغتصب ما لديهم من معرفة وقدرات تضعها في أقراص سهلة البلع والهضم في الامعاء الكسلى للقراء ، فقراء الفكر والشعور . هكذا نخسر الثقافة ولا نربح الصحافة .

***

لا تستهويني قضية اكثر من «النقد» اذا جلست الى طه حسين . فاذا كان الوجه السياسي لمنهجه في كتاب «الشعر الجاهلي» كان محور نقاشنا الاولي حول هذه القضية ، فاني اردت ان أعود الى الوجه الآخر لهذا المنهج :

● هل استطاع منهج النقد الموضعي او نقد النصوص ان يخدم هدفكم الاكبر في مراجعة التراث ، ام انه كان بالامكان الاستعانة بمناهج أخرى ؟

اجاب طه حسين بما يشبه الانفعال :

ـ ليس هناك نقد خارج نقـــد النصوص ، فعصر المتنبي لا يعنيني .. شعره هو الذي يعنيني .. العصر قد يبرر ، دراسة الشخصية قد تنير ، عادات المجتمع وظروف البيئة وقيم الانسان قد تساعد على الفهم . ولكن الفن الذي يرتبط بعصره وحـــده ومجتمعه وحده ويرتبط آليا بالشخص الذي أبدعهوالقيم والعادات والتقاليد التي أحاطت به ، هو فن موسمي ومحلي وغير قابـــل للبقاء ، غير قابل للعطاء . لذلك كان ((النص)) نفسه خارج قيـود الزمان والمكان ، هو المعيار الوحيد للتقويم الصحيح .

الى اي عصر ينتمي ((هاملت)) في تمثيلية شكسبير؟ الى العصر الفكتوري ام الى العصر الحديث ؟ ماذا نعرف عن شخصيـــــة شكسبير ، واذا عرفنا فما هي العناصر التي يمكن ان تكون قـــد أثرت على تأليف هاملت .. حتى لو توافرت المعدات اللازمـــة لتسجيل كل نبضة في قلب المؤلف والتقاط كل شاردة في خياله، كيف يمكن انتحصي ردود الافعال الفنية لهذهالنبضات والشوارد. ماذا يدرينا ان طفولته او صباه او شبابه هو الذي ترك بصماته على هذا المقطع دون ذاك ؟ ماذا يدرينا ان ثقافته اكبر من موهبته او العكس .

لو ان الناقد تفرغ لخارج الفنان وداخله لغاص في متاهات ، قد تغني معرفته التاريخية والاجتماعية والنفسية وقد لا تزيده علما بكل هذه المجالات . غير ان المؤكد هو ان ((الفن)) يبقى الحقيقة الضائعة من بين يديه اذا لم يتخذ من النص دليله الوحيد لمعرفة هذه الحقيقة الاشمل من التاريخ والاغنى من الجغرافيا والاعمق من المجتمع والاخصب من الفرد .

● يظل نقد النصوص او النقد الموضعي يشوبه الغموض ، حتى ان البعض ممن يتحمسون له يقعون في براثن النقد البلاغي الذي عرفه تراثنا القديم ، والبعض الاخر يتصور انه شبيه مـــا يسمى بالنقد الجديد في انجلترا وأمريكا ..

قاطعني العميد بما يشبه العنف :

لا هذا ولا ذاك يا بني .. الافراط في وزن البيت الشعري ، وقياس عروضه ونحوه وصرفه وقوانينه يصل بك الى حدود النقد اللغوي لا نقد النصوص . موضوعية العمل الفني التي ينادي بها دعاة النقد الجديد هنا نقلا عن الثقافة الانجلو سكسونية المعاصرة لا تكتمل الا بالذات فلا تناقض بينهما . النقد الجديد يكاد يجعل من النقد طقوسا كهنوتية تتعذر معها عملية النقد ذاتها .

نقد النصوص ليس تهويما صوفيا حديثا ولا تشريحا لفظيا قديما ، انه رؤية القصيدة مثلا من داخلها ، ولكن هذا الداخــل نفسه مليء ومتخم بعناصر الفن الاكثر سموا من اللغة كمصطلحات تعبير او تفاهم . اللغة في الفن تتحول الى عنصر جديد لا علاقة له بمعظم المفردات ودلالاتها القريبة من التناول في الحياة اليومية . اللغة في الفن تصبح فنا او عنصرا فنيا يتكامل نموه مع بقية ادوات الصياغة . نقد النصوص يخترق حجب العادي والمألوف والمرئي بالعين المجردة ، الى دنيا كاملة رآها الفنان بعيـــون مغمضة او مفتوحة لا يهم .. هي دنيانا الاكثر حقيقية من الحقيقة ، ولكــن الفنان يراها ببصيرة تختلف عن البصر العام .

اكتشاف هذه الدنيا من خلال النص، هو عمل الناقد ووظيفته الكبرى ، قل وظيفته الوحيدة .

***

«انها لكارثة كبرى ان يكلف مثلي وضع الاصطلاحات في الطب والطبيعة والفنون العملية المختلفة . ولو ان الاكاديمية الفرنسية عنيت بوضع الاصطلاحات للعلوم والفنون لكانت موضع سخرية الفرنسيين جميعا والعلماء في مقدمتهم .. فمن العبث اذن ان يكلف المجمع وضع الاصطلاحات او يضيع وقته فيها . وهناك مسألة اللهجات ، فليس المجمع مدرسة وانما تدرس اللهجات في معاهد خاصة تلحق بالجامعات وبكليات الآداب . وما أعرف ان المجمع الفرنسي مثلا عني في يوم من الايام باللهجات . بل هو يحاربها لان عمله الاول هو الاحتفاظ بنقاء اللغة وصقلها ، فاذا أريد درس اللهجات العربية القديمة كما تمثلها قراءات القرآن الكريم فهذا شيء متصل بالمعجم التاريخي وبالنحو والصرف . وهو شيء مخالف كل المخالفة لما يراد من درس اللهجات الحديثة» .

● هذه الكلمات لسيادتكم ، قد نشرت في «الاهرام» بتاريخ ٤ مارس ـ اذار ١٩٣٧ قبيل دخولكم المجمع اللغوي . وقد مرت السنين الطوال ، وأصبحت مسئولية المجمع احدى مسئولياتكم الكبيرة . وقد كانت هذه الكلمات القديمة مثارا لجدل طويل بينكم وبين مجايليكم (هنا ردد طه حسين هذه الكلمة وهز راسه ثم سألني : لماذا لا تقول معاصريكم) من أمثال منصور فهمي واسماعيل مظهر .. فماذا قال الواقع العملي في تلك المشكلة .

قال رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة والعضو بكافة المجامع العربية والعديد من مجامع العالم :

ـ أرجو ان تكون قد تابعت جهود المجمع فيما نشره من معاجم ودوريات ، وان تكون قد اطلعت على مجلته وبحوثه . فروع العلم الطبيعي يتفرغ لها اساتذة في الكيمياء والطبيعة والطب

والصيدلة والزراعة وما اليها . الفاظ الحضارة الحديثة قد نعمد الى ترجمتها بالاشتقاق والتوليد والبحث في كنوز اللغة القديمة عن مفردات ثم ترتدي معنى جديدا . وقد نترك اللفظ على حاله . في المعجم الوسيط الذي صدر ووردت به أخطاء ، وبعض التجديد، وسيعاد طبعه . في بحوث تيمور بعض القيمة . اللهجات لا علاقة ــ نحوية او صرفية ــ لنا بها . الفصحى هي اللغة العربية ، هي اللغة . غير ذلك نفايات ، لسنا مسئولين ولا معنيين بما يمكن ان يكون فيها من كنوز .

***

قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها وبعدها ، كـــان الكفاح الوطني لجيل الرواد ، ابناء عصر النهضة ، قد خمدت جذوته . كان قبول معاهدة ١٩٣٦ أيامهم ، كقبول مشروع روجرز ايامنا ، قبولا بالامر الواقع واستسلاما له كما قال البعض ولا زال يقول . وكما ان هزيمة ٦٧ كانت خاتمة موضوعية لجيل كامل من أجيال الثقافة العربية المعاصرة كذلك كانت معاهدة٣٦ نهاية الجيل العظيم الرائد . كف عن العطاء واتجه بالجملة الى التاريـــخ ينبش آثار الاقدمين ، لا يستلهمها في أعمال فنية تحاور الحاضر وتستشرف المستقبل . كانت نكسة . وصفها الكثيرون بأن اصحابها يسيرون بأقدامهم الى الامام وعيونهم الى الخلف .

هذه وجهة نظر قال آخرون بنقيضها . قالوا ان اسلاميات طه حسين والعقاد وأحمد امين وهيكل والحكيم ، كانت غزوا من جانب المثقفين للجهل والخرافة . ارادوا بعث الاسلام بعثا جديدا لا يعتمد ألاحاجي والالغاز والطلاسم التي تراكمت على الحواشي والهوامش ، حتى لم يعد العربي المسلم قادرا على فكهـــا وحلها ومعرفتها . يجب ان نتوجه اليهم بالشكر ، لانهم استناروا بالعلوم الحضارية الحديثة كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والفلسفة،

وها هم يسددون دينهم لتراث امتهم فيعاودون فيه النظر ويمعنون الفكر والتأمل، ويخرجونه من ظلمات القبور وأكفانها العتيقة معرفة حية متجددة معاصرة .

وكانت المشكلة التي تحتاج الى تفسير ــ سواء لدى المؤيدين او المعارضين ــ هي ظاهرة «الجماعية» التي تم بها التحول عن دراسة الادب الى دراسة الدين والتاريخ ، من دراسة الغرب الى دراسة العرب ، والظاهرة الثانية هي «التوقيت» الـــذي عاصر التحول من ديكارت وفرويد وجان جاكروسو وداروين وبرنارد شو الى محمد وعلي وعثمان وخالد وعمر .

ورايتني اصوغ السؤال على نحو آخر ، وانـــا اقول لعميد الدراسات الاسلامية الحديثة :

● عندما صدر كتابكم «على هامش السيرة» ثارت ثائـــرة المجددين والمحافظين على السواء. ومن جملة ما قيل ان طه حسين قد تحول بهذا الكتاب من النقد الادبي الى الاساطير .. فما هو تقويمكم الخاص لهذه الثورة المضادة المزدوجة من الطرفين حينذاك؟ وهل كان منهجكم في «على هامش السيرة» منهجا تاريخيا فـــي صميمه ، ام ترون ان للخيال الفني نصيبا فيه ؟

وبدا لي طه حسين كأنه يستعيد ذكرى بالغة القدم موغلة في سراديب الزمن . واخيرا سألني :

ــ من هم المجددون ؟ كنت أظنني واحدا منهم . ولمـــاذا يشيدون بكتابي حول الشعر الجاهلي ولا يفعلون ذلك حين اتصدى لتاريخ الاسلام ، على الرغم من ان مادة الشعر الجاهلي ليست

أقل قدما من مادة التاريخ الاسلامي . كنت أتصور انهم سيحاكمون المنهج ويقومون زاوية النظر ، واذا بالذي يفزعهم هو التصدي لحياة المسلمين الاول . هل كان واجبنا المقدس ان نتركها للمستشرقين ؟ بين المستشرقين علماء أفاضل ولكن العلم ليس حكرا لهم ولا مقصورا عليهم . نحن أولى بتاريخنا منهم . اننا نشكرهم . هذا واجب الاخلاق والعلم . ولكن تراثنا الاجتماعي والتاريخي لا يشكرنا اذا تجاهلناه . ام ان الادب هو كل التراث العربي الاسلامي ؟

كان التهكم والمرارة يكونان نبرات طه حسين ، وهو يسترسل:

ـ لست أفهم لماذا أصبح طه حسين حين أعالج حياة وشعر ابي العلاء والمتنبي ولا اكون طه حسين حين أعالج حياة الرسول ورسالته وصراع الخلافة من بعده . يا ناس ، ارحمونا وارحموا انفسكم يرحمكم الله . انني في آخر ايامي ، اودعكم بكثير من الالم وقليل من الامل ..

هبطت عليّ الكلمات كالصاعقة وداخلني الانزعاج في كل خلية من دمي وارتج علي القول ، ولكني تحاملت على نفسي والانفعال يكاد يمزق عباراتي ، وقلت :

● استاذنا الكبير .. هل قلت ما يسيء .. ربما لا اكون قد انتبهت الى صياغة سؤالي بدقة .. انني اتكلم عن قضية قديمة لا يتصل الحوار حولها باحترام المعاصرين لفكرك واعتزازهم بك واعتبارهم لك استاذهم الاكبر .

لم يعلق وكأني لم أقل شيئا . سألني بحدة :

ـ من هم المجددون ؟ قل لي من هم المجددون . المحافظون لا يفهمونني ، هذا طبيعي. منذ كتب الرافعي (يقصد مصطفى صادق) كتابه ضدي (يقصد معركة الشعر الجاهلي) وانا لا اعبأ بهم . ولكن المجددين يتهمونني بالانتكاس والانحراف ؟

● المجددون القدامى ، هذا ما تشير اليه صحافة تلك الايام .

ـ لا .. ليس هؤلاء فقط ، انني اسمع تقويما معوجا لما امليته وكتبه غيري حول الاسلام . هذا جهل .. فالاسلام ثقافة عالمية ومرحلة حضارية عظيمة من مراحل الرقي الانساني ولا يزال عقيدة دينية للملايين من البشر ، فهل تصبح دراسته أقل أهمية من دراسة «امرىء القيس» ؟ ألا تفرقون بين المادة الاولية الخام ومنهج البحث؟ كنت أظنكم تتصورون دراستنا لابطال الاسلام وأعلامه ثورة جديدة ، فقد لا يهتم الكثيرون بقراءة ابن الرومي للعقاد ، ولكنهم يهتمون اكثر بقراءة عبقرية عمر . الغالبية كانت ترزح في تلقيها للاسلام تحت أثقال التفسيرات غير العلمية للمشايخ . وجئنا نحن بروح فدائية حقيقية نقتحم هذا الميدان المغلق عليهم . اتيناهم في عقر دارهم لنوقظ المسلمين على تاريخهم الحقيقي . لم نتخل عن مناهجنا التي درسنا بها الشعر وغير الشعر ، ولكننا طبقناها على تاريخ العقيدة التي تدين بها الاكثرية الساحقة . قل ان الاسلام كان مدخلنا الجديد لترسيخ المنهج ، وقل العكس كان المنهج مرشدنا الى اقتلاع الخزعبلات من جذورها ، من أرواح العامة ونفوس ابنائهم . لم يتخل العقاد عن منهجه النفسي الفردي الذي عالج به ظواهر الفن وشخصيات الادب ، حين كتب العبقريات . لم يتخل هيكل عن الرومانتيكية حين ألف كتابه عن الرسول . ولم يتخل الحكيم عن تصوراته الفنية وهو يكتب اول تمثيلية عن محمد . كذلك فعلت حين أمليت «على هامش السيرة» . العقل

أداة التحليل والخيال أداة التركيب (هنا نطق الكلمة بالفرنسيـــة) كلاهما عنصران متكاملان في منهج البحث التاريخي . الخيال هنا ليس مرادفا للشعوذة . لماذا لا يسأل أولئك المجددون أنفسهم عن اسباب النقمة العاتية والثورة الضارية التي شنها السلفيون من المحافظين . أليس ذلك لاننا هاجمنا أوكارهم المظلمة وسلطنـــا داخلها الشمس والهواء النقي وفضحنا أستارهم المضللة . لقد فضلنا انقاذ مئات الالوف من هيمنة «دكتاتورية الجهل» وعبودية «دولة الخرافة» على ان نظل أسرى اعجاب المثقفين ، صفـــــوة المثقفين .

وخيل لي ان الدكتور طه حسين يرتجف .

***

● في اكتوبر عام ١٩٣٢ حدث سجال بينكم وبين الدكتور هيكل حول دور الغرب في الثقافة العربية بمناسبة صدور كتاب المستشرق جيب «وجهة الاسلام» . فما هو رأيك مفصلا فـــي العلاقة الفكرية بيننا وبين الغرب ، وأثرها في حضارتنا المعاصرة ؟

ـ ماذا تقصد بحضارتنا ؟ حضارة العالم ام حضارتنا نحن ؟

● نحـــن .

ـ هناك علامتان اساسيتان في كتاب العلاقات الحضاريـــة بيننا وبين الغرب . الاولى في ذروة الحضارة العربية الاسلامية عند احتكاكها باليونان . والثانية بدأت مع حملة نابليون ولا زالت قائمة . الفرق الخطير بين العلامتين ، ان الاولى أقبلت ونحن في

أوج المجد ، والاخرى اقبلت ونحن في سبات عميق . لذلك كانت النتائج ـ ايضا ـ مختلفة . الدرس الذي يجب ان نعيه جيدا في نهاية الامر ، هو ان الحضارة كالحرية «كل» لا يتجزأ ، فكما لا نستطيع ان نأخذ الحرية السياسية دون الحرية الاقتصادية ، لا نستطيع ان نأخذ من الحضارة الماكينات والآلات الكهربية ونترك الفكر والادب والفن .

والتفت رأس طه حسين ناحيتي ، وقال :

ـ قل لهم لا تخافوا على التراث فهو لا يحتاج الى خوفكم . ان تفاعل الفرنسيين مع الينابيع اليونانية والرومانية في عصر النهضة ، أثمر نموذجا فرنسيا مختلفا عن النموذج الايطالي او الالماني او الانجليزي . كذلك فان تفاعل الامريكيين مع الثقافة الاوروبية بفروعها المختلفة التي حملوها معهم كمهاجرين ، وخصوصا الثقافة الانجليزية ، أثمرت نموذجا امريكيا مختلفا كل الاختلاف . وهكذا ، فان تفاعلنا الحضاري مع الغرب ، سوف يثمر مع الانفتاح الخالي من العقد ومركبات النقص نموذجا مصريا عربيا أصيلا . ولكن لا تضيفوا الى عناصر التمزق الفردي والاجتماعي والحضاري عنصرا جديدا حين تفصلوا بين شقي الحضارة المتلازمين : المادة والروح ، الآلة والفكر ، الماكينة والثقافة .

● من أهم المعارك التي خضتموها في حياتكم الادبية ، تلك المعركة التي قامت بينكم من جانب ، والعقاد من جانب آخر ، واتخذت عنوانا عاما هو «لاتينيون وسكسونيون» وذلك في أوائل عام ١٩٣٣ وقد كان منبركم هو مجلة «الرسالة» ومنبر العقاد هو جريدة «الجهاد» . والمعركة في واقع الامر كانت بين اتجاهين في

الثقافة المصرية : الاتجاه الفرنسي ، والاتجاه الانجليزي . غير ان المعركة توقفت فجأة دون الوصول الى نتائج حاسمة . فما هي في رأيكم ، المصادر الموضوعية للمعركة ، ولماذا توقفت ؟

ـ لست أفهم ماذا تقصد بكلمة الموضوعية هنا ، لقد تعلمت في فرنسا ، وتعلم العقاد اللغة الانجليزية وبالتالي ثقافتها . كانت معركة مفيدة فقد أبرز العقاد خير ما في الثقافة الانجليزية ، وحاولت بقدر ما استطيع ان أبرز خير ما في الثقافة الفرنسية ، ويبدو لي الان ان العقاد انتصر ، اذا صح تقديرك لسيادة الانجليزية على أركان الثقافة المصرية في الوقت الحاضر . ولكن المشكلة في جوهرها الاعمق ، تظل قائمة : هل كنا نفتنني اكثر اذا كان اللواء معقودا للفرنسية ام ان حظنا من الانجليزية جاء أوفر . الموضوع يستحق مواصلة الدرس والمقارنة بين حال الثقافة في فرنسا وحالها في انجلترا وأمريكا والهند ، وبين حال الثقافة في مصر والعراق والسودان وحالها في الجزائر وتونس والمغرب .

بعيدا عن السياسة وأسبابها التي تشكل ظروف سيادة احدى الثقافات قلت بالامس وأقول اليوم وربما غدا ان الثقافة الفرنسية اكثر رقيا في مضمار الحضارة ، ولعل أصول القبائل الهمجية التي كونت الانجلو سكسون لا زالت كامنة في الثقافتين الالمانية والانجليزية وقد ورثتهما على نحو أسوأ وأكثر خشونة الولايات المتحدة الامريكية .

لا مفر من العودة الى «النقد» . ربما كان اهتمامي الشخصي هو مصدر ذلك الالحاح . وربما كانت المساهمة الكبرى لطه حسين هي المصدر ، فهو بالنسبة لي «ناقد» اولا واخيرا . قلت له :

● من «ذكرى ابي العلاء» الى «تجديد ذكرى ابي العلاء» الى

«ابي العلاء في سجنه» يتضح لنا ان الباحث الادبي في هذه الكتب الثلاثة يكاد يستخدم منهجا موحدا في رؤية آثار ابي العلاء ، لكنه منهج مغاير للنقد الموضعي او نقد النصوص . ان هذا المنهج الاخير بالرغم من كل ما يمكن ان يوصف به من انه انطباعي او تأثري ، فانه يعتمد اولا واخيرا على حقيقة موضوعية هي النص نفسه اما المنهج المتبع في تقويمكم لآثار ابي العلاء ، فانه يبدو كما لو كان قائما على علاقة شخصية تربطكم بهذا الشاعر الفيلسوف (هنا قال الدكتور طه حسين : من الافضل ان تقول «المتفلسف») . ما رأيكم في هذه الملاحظة ، اذا وافقتم على صحتها ؟

هز راسه وضم شفتيه وهو يجيب :

ـ الملاحظة صحيحة .

● لا تزال قضية «في الشعر الجاهلي» في أذهان جيلنا على الاقل ، علامة مضيئة للطريق الى علاقة الادب بالسياسة من ناحية ، وعلاقته بمقدسات المجتمع من ناحية اخرى . وبغض النظر عن الموضوع الخاص الذي اثاره «في الشعر الجاهلي» ، فان ارتباط الادب بالسياسة والقيم الاجتماعية قضية مثارة دائما .. فماذا تراه من حدود بين هذه الاطراف ؟

ـ لا شك عندي في علاقة الادب بالسياسة ، ولكنكم تبالغون احيانا في تصور وتصوير هذه العلاقة . انكم تكتفون احيانا بسطوح الاشياء من بعيد فترون الخطوط كلها مستقيمة وان كونت فيما بينها المثلثات والمربعات والمستطيلات والمتوازيات . ولكنكم لا ترون غالبا المنحنيات والمنعطفات والمتعرجات . ولنمسك باطراف واقعة محددة باتت معروفة للجميع ، هي قضية كتاب «في الشعر

الجاهلي)) . من وقف الى جانبي والى جانب الكتاب في الصحافة ومجلس النواب والجامعة ؟ انني عملت ، كما تعرف ، وزيرا في حكومة الوفد الاخيرة . ولا أشك لحظة واحدة في ان الوفـــد استقطب الغالبية العظمى من المصريين ، رغم الاخطاء والنواقص. ولكن هذا كله لا ينفي الحقيقة خارج التاريخ ، فقد هاجم الوفديون كتابي هجوما شديدا ، بادر بعضهم وشارك البعض الآخر في حركة الاستعداء الواسعة ضدي ، استعداء الجماهير والسلطة الحاكمة سواء بسواء . بينما وقف معي من تسمونهم بأبناء الارستقراطية كعبد الخالق ثروت .

هل معنى ذلك ان كتابي كان يخدم ـ سياسيا ـ الطبقـــة القليلة العدد ، حتى يبرر ذلك هجوم الحزب الشعبي ؟

لا أظن ، وانما تكمن المفارقة اصلا في انخفاض مستوى الوعي والثقافة عند حزب الوفد (قاطع طه حسين نفسه قائلا : دعك من البلاغة والخطابة والكفاح والوطنية) . كان أقطاب هذا الحزب هم الذين يفصلون بين الثقافة والسياسة ، او هم يفهمون العلاقـــة بينهما فهما غوغائيا ، فما دامت الاغلبية ضد الكتاب لانه يمس في وهمهم المقدسات، فانهم ايضا ضده. بينما كان المثقفون الحقيقيون ينتمون اجتماعيا الى فئة الملاك الكبار وسياسيا الى حزب الامة فالاحرار الدستوريين . تعلموا في اوروبا ـ وخاصة في فرنسا ـ فاحترموا الثقافة لذاتها ، واحترموا العقل . وهكذا وقفوا الى جانب كتابي والى جانبي .

أليس للكتاب ومؤلفه اهدافا سياسية واجتماعية مضمرة في ثنايا التحليل الفني والتاريخي ؟ نعم ، انه موقف واضح الى جانب

العقل ، موقف معادٍ للمسلمات ، موقف أبعد ما يكون عن التعاطف مع السلف .

هل هذا الموقف يدعم سلطة الملاك الزراعيين الكبار وأصحاب البنوك ، ام هو يخدم الشعب ؟

أجيبوا أنتم ، ولكن احذروا في قراءة التاريخ معادلات الجبر والهندسة والحساب ، فالادب له علاقة بالسياسة ولكن السياسة لا علاقة لها بالرياضة . لقد أنصفني أناس شاركوني عشق الثقافة واحترام العقل ولم أشاركهم اصالة المنبت ولا زرقة الدم ، ووقف ضدي أناس أشاركهم كل شيء ، فيما عدا التخلف وتملق غرائز الغوغاء .

الثقافة ، آدابها وفنونها وقوانينها وقيمها ، مرتبطة بالسياسة والمجتمع كأوثق ما يكون الارتباط ، ولكنه ليس ارتباطا سطحيا ولا ميكانيكيا بأية حال . انه ارتباط مقصود وغير مقصود في آن ، يعيه الاديب في عمومياته كالمبادىء العامة ولا يعيه في التفاصيل، المنبت الاجتماعي لا يلزم الاديب بفكر هذا الاصل .. فقد يكون الكاتب من عائلة ارستقراطية وفكره شعبيا ، والعكس ايضا صحيح . فهناك أدباء نبتوا في صفوف الشعب ولكنهم يفكرون وينشئون أدبا ارستقراطيا . هذه سيرة العقاد مثلا . مادة الادب ايضا لا تلزم الاديب بفكر ما ، فقد تكون حياة القصور هي مادة التمثيلية والمؤلف شعبيا ، والعكس صحيح اذ ربما كانت هذه المادة مستوحاة من حياة الاكواخ وبؤس الفقراء والمؤلف ارستقراطيا . ثقافة الكاتب ايضا ، ربما كان مصدرها السوربون او أكسفورد او هارفارد ، ولكنه كاتب شعبي ، وربما كان مصدرها الازهر والكاتب من أعداء الشعب .

احذروا التبسيط المخل والقياس الميسور والتقويم المتعسف، وأرصدوا ردود الافعال الطويلة الاجل والنفس غير المحدودة باللحظة العابرة والبيئة الضيقة .

● اعترض بعض النقاد على تطبيق منهج الشك الديكارتي على شخصية فنية معروفة كشخصية المتنبي في كتابكم «مع المتنبي» فما تعليقكم على مثل هذا الرأي ؟

ـ يساورني الشك في استقبالكم لكلمة «شك» التي وردت في كتابي «في الشعر الجاهلي» بمعنى بعيد عما كان يجول في خاطري عند اختيار هذا اللفظ ، كما يساورني الشك في تلقيكم معنى الشك عند ديكارت . لا بأس من ان أكرر انني قصدت التمحيص على ضوء العقل وعدم التسليم الاعمى بما رواه الاولون وأخبرنا به السلف . هذا الكلام مجرد منهج يقبل التطبيق على الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي والشعر الحديث سواء بسواء . واذا كان الانتحال هو ثمرة هذا المنهج في التطبيق على الشعر الجاهلي ، فان علاقة المتنبي بسيف الدولة موضوع شائق ويخضع لكثير من مقتضيات المنهج نفسه .

من الاباطيل «العلمية» التي يشيعها الجهلاء ان لكل موضوع منهجه ، فالشعر الرمزي يحتاج الى منهج تفسيري ، والقصة النفسية تحتاج الى تحليل فرويدي ، والتمثيلية الاجتماعية تحتاج الى تأويل اجتماعي والتاريخية تحتاج الى تعليل تاريخي ، وهكذا.

ليس هذا صحيحا ، والصحيح ان لا علاقة المادة بمنهج البحث او النقد ، فكل مادة قابلة لاكتشاف مختلف المناهج . ولكن هناك منهجا تثبت صحة استخدامه فيغتني بمادة البحث ومجموع

تجاربه عليها وشحذ الادوات التي خبرها ، وهناك منهج آخر لا يصمد للتطبيق ، حتى وان نجح مصادفة ذات مرة على موضوع ما .. فليس الموضوع هو السبب .

● بعد وفاة شوقي عام ١٩٣٢ أثيرت مشكلة امارة الشعر ، وقد قيل ان سيادتكم قد رشحتم العراق لهذه الامارة كما كتب الزيات في الرسالة ١٥ يناير – كانون الثاني ١٩٣٣ (دون تحديد من هو المقصود : الزهاوي ام الرصافي) ، ثم جاء خطابكم في حفل تكريم العقاد (المنشور بالجهاد في ٢٩ ابريل – نيسان ١٩٣٤) يقول «ان الشعراء يستطيعون ان يدفعوا لواء الشعر الى العقاد بعد ان مات حافظ وشوقي فهو يستطيع ان يحمل هذا اللواء مرفوعا منشورا وان يحتفظ لمصر بمكانتها في الشعر الحديث» . ثم نشرت مجلة «الحديث» (مجلد ٤٨ ، سنة ١٩٣٧) نص رسالة شخصية منك الى خليل مطران جاء فيها ما نصه «انك زعيم الشعر العربي المعاصر ، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين» ... فما هو تفسيركم لذلك اذا كانت الوقائع صحيحة ، وفي فترة تاريخية قصيرة ؟

وتنهد طه حسين عميقا ، ثم قال :

– الوقائع صحيحة ، فيما عدا المنسوب الى الزيات في الرسالة فانا لست مسئولا عنه . وما التناقض بين تخصيص هذه المكانة التي أشرت اليها ، للعقاد بالنسبة للشعر المصري ، والمكانة التي أشرت اليها لمطران بالنسبة للشعر العربي المعاصر ؟ ليس ثمة تناقض ، ففي زمن العقاد لم يكن هناك سواه أفضل منه ، ولكن فضل مطران على العقاد وغيره من المجددين لا يحتاج الى بيان او شهادة .



الجامعة هي حبه الاول والاخير ، هكذا قالت لي السيدة العظيمة زوجته التي يراها نورا وملاك رحمة . وهكذا قال لي تلاميذه وأصدقاؤه الاقربون ، انه يجد نفسه في الجامعة اكثر مما يجدها في اي شيء آخر . لذلك لا يقاس انتاجه بحصيلة مؤلفاته المنشورة ، وانما الى جانبها ، بتلك الاجيال المتعاقبة من طلابه الذين اصبحوا اساتذة وعلماء . قلت للعميد ، وهذا اقرب الالقاب الى قلبه ، فعمادة كلية الآداب هي مرفأ الروح ومعبد العقل :

● ظل العمل في الجامعة مرافقا لجميع اعمالكم الاخرى ، في الصحافة أو السياسة او الادب ، فهل ترون الجامعة في بلادنا صالحة لان تكون «قيادة فكرية» في المجتمع يجدر بالمفكر ان يتخذ منها منبرا لفكره ، ام ان اصراركم على العودة اليها بين الحين والآخر كان له سبب آخر ؟

ـ الجامعة ؟ لا يعرفونها الآن . الجامعة كانت ، اما الان فلست أدري ، هل نحن الذين تخلفنا ام ان ثمة شيئا خطأ قد حدث ، الجامعة كانت في زماننا محرابا للفكر، كانت قدس أقداس الحرية، اسمع الان انها تحولت الى شيء شبيه بالمدارس الثانوية او المدارس المهنية المتوسطة ، دعنا من هذا الموضوع ، ساعدهم الله .

لم أسأله عمن يقصد، تفصد جبينه بحبات صغيرة من العرق. وتصورت انني تجاهلت الموضوع كليا حين بادرته بالسؤال :

● مررتم في حياتكم السياسية بعدة مراحل واضحة ، منها انضمامكم في فترة باكرة الى حزب الاحرار الدستوريين ، ومنها انضمامكم عام ١٩٣٣ الى صفوف حزب الوفد .. فهل لكم أن تفسروا لنا هذا التطور ؟ وما رأيكم في اشتغال الاديب عموما بالسياسة ؟

زفر بحرقة واستدار نحوي نصف استدارة أشبه بلفتة كاملة بالعنق ، وخرجت من حلقه الكلمات متقطعة :

ـ لماذا تسميه «تطورا» ؟ كان مقر الاحرار الدستوريين ناديا ثقافيا رفيعا فالتحقت به ، وكانت بيني وبين الوفد اشياء وأشياء منذ معركة «في الشعر الجاهلي» . ولاحظت على الاحـــرار الدستوريين في كفاحهم الوطني طراوة ابناء الذوات وفي سلوكهم السياسي اجحافا بحقوق الفقراء . بينما كان الوفد اكثر صلابة وتعبيرا عن مطامح الجموع ، فآليت على نفسي ان أطوي صفحة وأفتح اخرى اكثر اتساقا مع ضميري . الضمير هو المهم . الاديب والسياسة ؟ منذ متى كانت مشكلة . جميع الادباء في جميع انحاء العالم يشتغلون بالسياسة ويدخلون الاحزاب ويعملون احيانـــا بالسلطة التنفيذية او التشريعية . الاديب مواطن كبقية المواطنين وليس نباتا شيطانيا ولم يتخرج في مستشفى الامراض العقلية .

● اشتغال الاديب بالسياسة يثير عند الاجيال المعاصرة قضية دائمة هي قضية الالتزام ، وهذه الاجيال تفرق بين الالتزام بمعناه الوجودي ــ السارتري خصوصا ــ والالتزام بمعناه الاشتراكــي والالتزام بمعناه العام .. فمن اي الزوايا تنظرون الى هذه القضية، وما هي النتائج التي تصلون اليها ؟

ـ لست احب للادب ان يكون لافتة سياسية ، وينبغي الحذر من الخلط بين اشتغال الاديب بالسياسة كأي مواطن، وبين تحويل ادبه الى دعاية سياسية . للادب ردود فعله السياسية وأصداؤه الاجتماعية ، دون تخطيط او توجيه او الزام ، فالضمير الفردي الحر هو قيمة القيم في حياة الاديب وأدبه .

● اذا كتب أحدهم عملا ضد الشعب بضمير مرتاح ، فما رايك ؟

ـ يصبح كاذبا لو فعل العكس ، والكذب لا يثمر فنا . ولكن عداء الشعب ايضا كذب على النفس وتضليل لها وللآخرين ، فهو لا يثمر فنا . فرضك نظري لا معنى له . الفن العظيم ، الفن الحقيقي ، لنقل الفن فحسب ، هو لخير الانسانية بالضرورة .

● تواجه مصر منذ عام ١٩٥٢ تجربة جديدة في مجال الثورة السياسية والثورة الاجتماعية ، تخطىء وتصيب ، تنفع وتضر ، ولكنها تتميز بمرحلتين هامتين : الاولى هي مرحلة الثورة الوطنية او الاستقلال الاقتصادي والسياسي ، والاخرى هي مرحلة الثورة الاجتماعية . وقد كان لجيلكم شرف النضال الثوري بين عامي ١٩١٩ و١٩٥٢ فما هو الدور الذي تتصورون ان هذا الجيل قادر على ادائه في المرحلة الجديدة ؟

تحددت ملامح النفور في وجه طه حسين الطيب لاول مرة. تحركت وجنتاه وجبهته ببطء شديد وتراءت لي ذقنه هي الاخرى تتحرك في صيغة مفادها النفور ، قال كمن يحسم امرا :

ـ انت تتكلم لغتهم . شعارات شعارات . البلد كما أشعر به لا يزال في مرحلة التحرير ، من اسرائيل هذه المرة . والبلد كما أحس به لا يزال متخلفا وفقيرا ومريضا وجاهلا . نسبة الاميين كما هي ، نسبة أنصاف المتعلمين كما هي ، نسبة المثقفين تتناقص بسرعة تدعو للانزعاج . يخيل الي ان ما كافحنا من اجله ، هو نفسه لا زال يحتاج الى كفاحكم وكفاح الاجيال المقبلة بعدكم . قلت لك منذ قليل انني في آخر ايامي ، أودعكم بكثير من الالم وقليل

من الامل . أكرر لك العبارة مرة اخرى ، اين ابناء جيلي ؟ لقد عشت لسوء الحظ بعدهم ، ثق ان جميعهم ماتوا وفي قلوبهم حسرة ، مرارة سلامة موسى كان يجيد اخفائها وراء محبته الغامرة للبشر وعشقه الصوفي لمصر وايمانه الرومانتيكي بالمستقبل ، خيبة العقاد كان يجيد اخفاءها وراء كبريائه العنيدة واحترامه لنفسه وحرصه الشديد على كرامته . كافح العقاد من اجل الحرية ، وكافح سلامة موسى من اجل الاشتراكية ، فهل أنجزتم هذه او تلك حتى تقرروا ان دورنا قد انتهى او لتتفضلوا علينا بالبحث لنا عن دور . ما هذا الكلام . وعمن تتكلمون ؟ لم يبق احد سواي وأنا رجل في الظل أطوي اوراقي وسأمضي قريبا . حتى مندور مات .

كان حزنه طاغيا وعميقا ولاهبا حتى انني كدت ابكي . حتى الاعتذار عن السؤال لم أحاوله ، كان الموقف شائكا وصعبا وخطرا، فآثرت لاشعوريا الاستمرار .

● يستقبل الشباب الجديد توجيهاتكم استقبالا حارا ، لكنه يتوقف طويلا عند اتهامكم له بالتقصير في حق نفسه وحق أمته من ناحية تكوينه الفكري .. فما هي هذه المظاهر ــ على وجه التحديد ــ التي ترونها أوضح دليل على هذا التقصير ؟

بهدوء شديد أجاب :

ــ هل بيننا وبينكم ثأر ام اننا نغار منكم ؟ لماذا لا تصدقون انكم ومن بعدكم أقل ثقافة ممن جاءوا قبلكم ؟ هذه ملاحظة لا تقتصر على النخبة ، وانما هي تشمل المجتمع بأسره ، فالخط البياني يسجل هبوطا حتى لا اقول انحطاطا ، انتم لا تجيدون لغة أمتكم

ولا لغات الامم الاخرى ، ولم تقرأوا تراثكم ، ولا تراث الامم الاخرى . يظهر ذلك بوضوح في ولعكم باستخدام العامية وشغفكم بالعمل في الصحافة والاذاعة وازوراركم عن التوجه الى اوروبا للتعلم . انتم تشتغلون بالسياسة اكثر مما تشتغلون بالثقافة ، وأنتم تشتغلون بالسياسة دون فكر سياسي .

● اذا كان لكل جيل قيمه الجديدة الخاصة به ، فهل ترون ان للاجيال المعاصرة قيمها الجديدة التي ربما تناقضت مع قيم جيلكم ، وما هي هذه القيم وتلك ؟

ـ انت تلف وتدور . كانت قيمنا هي العدل والحرية ، وكنا ضد الاستعمار الاجنبي والاستبداد الداخلي ، فما هي قيمكم ؟

ابتسمت وأنا اقول :

● القيم ذاتها ، ولكن ما هي الاعمال الادبية التي لفتت نظركم في انتاج الاجيال التالية لجيلكم في حقل الرواية والمسرح والشعر؟ وما هي الاسماء التي ترون انها قادرة على القيام بعبء القيادة الفكرية في المرحلة الراهنة ؟

ـ كنت اتابع نجيب محفوظ حتى بدأ يحاكي الاوروبيين المحدثين فلم أعد أفهمه ، كما لم افهم «يا طالع الشجرة» لتوفيق الحكيم. ابحثوا عن أنفسكم قبل ان تشغلوا بالكم بالبحث عن قيادة. انتم اشد ما تكونون احتياجا للبحث في أعماق النفس ، ثم تدبروا امركم .

***

فوجيء طه حسين بأنني صمت وانني رحت أتمتم خجلا بكلمات شكر متعثرة . كان قلبي الواجف لا يكاد يصدق ، انني امضيت كل هذا الوقت مع احد عظماء الضمير البشري في بلادي.

وراحت صوره تتداخل في مخيلتي من جديد : الفتى الضرير ، الازهر ، الجامعة الاهلية ، السوربون ، الاحزاب والعرش والحكومة ، شريط باهر لحياة آخر العمالقة في فكرنا الادبي الحديث . ولكن مخيلتي التقطت عبر اكثر من اربعين ساعة طيلة الاسابيع الثلاثة الماضية ، ان الرجل العظيم يطيل التأمل داخله اكثر من أهتمامه بما يدور خارجه .

كان ينسحب الى الداخل اكثر فأكثر ..

قاطع مخيلتي بقوله :

ـ هل تعتقد ان هذا الكلام يفيد ام انه يثير اليأس ؟

كان صوتي يتهدج وانا أجيب :

● كلامك ، يا سيدي ، جزء لا يتجزأ من الضمير العام .

قهقه عاليا ثم أشاح بوجهه مستطردا :

ـ وهل ستنشر هذا كله ؟ سوف يغضب الكثيرين فيما اظن.

● رغم ما سببته لك يا سيدي من ارهاق تتضاءل الى جانبه كلمات الشكر ، فاني على استعداد في اي وقت لاتلوه على مسامعك بعد صياغته النهائية .

كانت الصياغة هي أشق المراحل ، فقد سودت ما يربو على المائتي صفحة، كنت الهث احيانا وانا أسجل أفكار طه حسين اكثر مما أسجل الفاظه ، واحيانا اخرى كان لا بد من ربط المقاطع بعضها ببعض حيث ان فجوات الصمت والقفز من فكرة الى اخرى تسببت في مساحات خالية كثيرة .

بعض الاجوبة كان يحتاج الى تعليق او نقاش او انه يستحدث اسئلة جديدة ، مع هذا كان المرض يتحدانا معا ، يحرجني حينا، ويرجيء الفكرة حينا آخر ، كنت وطه حسين في سباق غريب مع الزمن ، سقطت مني اثناءه اشياء فيها ما يثير التأمل ويدعو الى اعادة النظر وفيها ما يستوجب التفكير الحي الفعال .

وفيها قبل ذلك وبعده طه حسين : **قطعة حية من تاريخنا توشك على السفر .**

من يدري ؟ فربما كانت هذه كلماته الاخيرة ، لنا وللاجيـــال المقبلة من بعدنا .

من يدري ؟ واتجهت بشعور لا يقاوم أقبل الجبهة التــــي واصلت العطاء حتى يومنا ، ولم أفهم ما غمغم به طه حسين ، ولكن صداه المؤثر ظل يأكل القلب وصورته تغطي المرئيات وسط اكليل من الدموع بخلت بها عيناي والسيارة تطوي بي شارع الهرم، عائدا من «رامتان» .. ربما لآخر مرة .

القاهرة ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣

خـــاتمة

٣ اسئلة الى نقاد طه حسين

في حياة طه حسين وفكره بعض «الثغرات» التي تحتاج الى توقف نقاده ومؤرخيه وقفات موضوعية متأنية . ذلك ان هـــذه الثغرات لا تتسع حتى لتصبح «خطايا» ولا تضيق حتى تمســـي وكأنها لم تكن . انها علامات قد تضيء لنا بعض الزوايا التي أهملها الكثيرون من مريدي الراحل العظيم في حياته ، ولا اقل مـــن الالتفات اليها بعد وفاته ، لعلها بالحوار تهدينا الى نقاط جديدة تستحق التأمل فى تاريخنا الثقافي .

● مثلا ، تلك الفترة التي انتج فيها واحدا من اعظم وابقى مؤلفاته وهو كتاب «في الشعر الجاهلي» . لقد كان طه حسين آنذاك مرتبطا برجال «الصفوة» من بقايا حزب الامة ، وهم مـــن كبار ملاك الاراضي الذين اتيح لبعضهم ان يتلقى العلم في اوروبا وخاصة في فرنسا . والمعروف ان عبد الخالق ثروت «باشا» قد

دافع عن طه حسين وكتابه دفاعا مجيدا في البرلمان ، بينما تصدت للهجوم بعض الرموز العظيمة في حزب الوفد . وهو حزب الثورة الوطنية الديمقراطية في ذلك الوقت . هل يكون ذلك سببا في هذه المفارقة الغريبة بين الانتماء الحقيقي لطه حسين ، فكريا واجتماعيا ، الى الشعب وصلاته «الثقافية» بالصفوة . لقد ظل يكتب في جرائد الاقليات ، وخاصة «السياسة» الاسبوعية ، التي كان يصدرها الاحرار الدستوريون زمنا طويلا ، فهل تكون عقدة «في الشعر الجاهلي» قد تسببت في انزوائه عن الحزب الذي نفترض انه يلتقي معه بالقلب والعقل ؟ ولماذا اتخذ الوفد هذا الموقف في ذلك الوقت ؟ الا يضطرنا ذلك الى تصور تحليلي اكثر عمقا ، لحركة الفكر والمجتمع في تاريخ مصر الحديث .. فلا يجوز – مثلا – القول بصورة ميكانيكية ان تنظيم القاعدة الديموقراطية العريضة ، يتبنى بالضرورة القيم والافكار الديموقراطية . وانما يتوجب علينا النظر الى «خصوصية الظاهرة» التي تجعل حزب الطبقة المتوسطة الناشئة في بلد متخلف ، يفتح النار على اول ثورة عقلية تمس «قدس اقداس القيم الموروثة» من قريب او من بعيد . بينما يتولى حزب الاقليات شبه الاقطاعية ، الدفاع عن الحرية والعقل ؟ اقول لنتأمل فقط .

كذلك الا يمكن القول بأن اقتراب طه حسين المبكر من هذه «الصفوة الارستقراطية المثقفة» ظل بذرة كامنة في تكوينه حتى بعد لقائه بحزب الوفد وانفصاله عن احزاب كبار الملاك ، ثم أثمرت هذه البذرة بعض «القيم الجمالية» التي وقفت بطه حسين عند نهاية الاربعينات وبداية الخمسينات موقف «المعارضة» من حركة الفكر الثوري البارز آنذاك في حياتنا الادبية ؟

مرة اخرى ، انني أتساءل ، فقط .

● النقطة الثانية هي أسلوب طه حسين . ان هذا الاسلوب الفاتن للوهلة الاولى ، هو من اكثر العناصر في ادب الراحل العظيم مثارا للجدل ، او ينبغي ان يكون كذلك ، ذلك ان انطباعي الشخصي هو ان الايقاع المنغم في هذا الاسلوب، أقرب الى الترنيم والترتيل ، وهما البديل الاكثر معاصرة للسجع القديم ، ولكنه ليس اسلوبا «حديثا» بأية حال . ذلك ان «حلاوة الموسيقى» تطغى احيانا على سياق البحث والدراسة الادبية ، وقد تصل بالتداعي الى «مفارق طرق» لم يقصد الكاتب ان يصل اليها . لقد كان من حظي ان استمع الى محاضرات طه حسين في الجامعة ، واشعر الان بأن ثمة علاقة بين صوته الرخيم واسلوبه في التعبير، واضيف احتياجه الى الاملاء وبعده عن امساك القلم . ان هذا التكوين الذاتي قد تضافر مع الحصاد اللغوي الرائع الذي جناه طه حسين من الازهر ، فأثمر معجمه اللغوي الوفير وترادفاته اللفظية التي لا تنتهي ، وهي احيانا ليست ترادف الكلمة بالكلمة وانما الجملة بالجملة والفقرة بالفقرة . وهو منهج الشارح والمعلم ، اكثر منه منهج الباحث والناقد . ولا شك ان طه حسين قد تأثر باللغة الفرنسية تأثرا واضحا ، ولكنه كان قادرا على تعريب التعبير الفرنسي ، بحيث يكتسب بريق الابتكار جنبا الى جنب مع طريقته هو في تجسيد المعنى .

ان طه حسين في هذا الصدد ، وقف في منتصف الطريق، الذي جرؤ كاتب آخر كسلامة موسى انيقتحم مجاهله حتى النهاية فأحدث تغييرا بلاغيا حقيقيا في لغة الفكر الاجتماعي ، كما جرؤ كاتب آخر كتوفيق الحكيم على ان يحدث تغييرا جذريا في بلاغتنا على صعيد اللغة الفنية .

اما طه حسين ، فلم يتوقف عند أعتاب السلفيين من مشايخ الازهر ، ولم ينجز ثورة في مجال اللغة .. فهل يكون ذلك هو

السبب في انه حين نادى باصلاح اللغة العربية ، وبدأ يوقع بعض مقالاته هكذا «طاها» لم تتوفر له عناصر النجاح ، لانه فصل ـ ذاتيا ـ بين تصوره النظري للاصلاح ، بينما كانت تطبيقاته التي تفيض عذوبة وجمالا في واد آخر ؟

انني ، فقط ، اتساءل .

● انني من عشاق كتابه «الايام» وما يسمى برواياته الادبية مثل «دعاء الكروان» و«شجرة البؤس» و«الحب الضائع» و«اديب» ومجموعة قصصه القصيرة «المعذبون في الارض» . ولكني ـ أمانة مع النفس ـ اقول ان الجوهر الاجتماعي في هذه الاعمال هو الذي يجذبني اليها .. لقد استطاع طه حسين ان يضع ايدينا ، ببساطة رائقة ، على مأساة الفئات الدنيا من الطبقة المتوسطة في صعيد مصر ، وأزمة المثقف الطالع من هذه الشريحة المسحوقة مع المجتمع الجديد من حوله ، سواء في القاهرة او في باريس . انها كتب أقرب الى المذكرات الشخصية ، ولكنها ـ في تقديري ـ أبعد ما تكون عن الاعمال الروائية ، حتى في مرحلتها التاريخية . يبقى محمد حسين هيكل ، ومن بعده توفيق الحكيم في «زينب» و«عودة الروح» هما الجسر «الفني» الذي أدى الى جيل نجيب محفوظ . أما أثر طه حسين في الرواية فيكاد يكون معدوما .

فهل يكون ذلك هو السبب في ان «نقد» طه حسين للرواية المصرية كان بعيدا في معظم الاحيان عن القيمة الحقيقية للعمل الفني ، فأعلى من شأن يوسف السباعي وثروت أباظه ـ على سبيل المثال ـ اعلاء مبالغا فيه ولا يدل على قامة طه حسين العالية الجبين ؟ انه في نقده الروائي مثلا يتوقف طويلا عند لغة الكاتب، ولا يتوقف لحظة عند البناء الجمالي والمضمون الاجتماعي .. أليست هناك صلة بين القدرة الفنية عند طه حسين على الخلق ،

ورؤياه النقدية لفن الرواية التي لا تثمر في ادبنا النقدي كثيرا ولا قليـــلا ؟

وبعد ، فهذه الاسئلة الثلاثة مجرد نماذج لتساؤلات عديدة ، لا تقلل بأية حال من القيمة الكبيرة ـ والباقية ـ لطه حسين في حياتنا الفكرية والادبية . ولكننا اعتدنا ان نركز عند وفاة كبـــار الادباء على المعاني الايجابية في انتاجهم واغفال او تجاهل هـــذه «الثغرات» التي ربما كان الحوار من حولها يكشف لنا من الكنوز المخبوءة اكثر كثيرا من الايجابيات المعروفة سلفا .

١٠ ـ ١١ ـ ١٩٧٣

فهرست